

قلعة (الثريا) ودرب

جازان العليا في ضوء

المصادر التاريخية (*)

أ. د. محمد بن منصور حاوي

(*) دراسة منشورة في كتاب: منطقة جازان: دراسات، وإضافات، وتعليقات (من

قبل الإسلام - ق ١٥ هـ / ق ١ - ق ٢١ م، لغيثان بن جريس، (الرياض: مطابع

الحميضي، ١٤٤٢ هـ / ٢٠٢١ م)، (الجزء الأول)، ص ص ٢٠٩ - ٢٣٨. سبق نشره في

كتاب: القول المكتوب في تاريخ الجنوب. (الجزء الثاني عشر) (طبعتان)

(الرياض: مطابع الحميضي، ١٤٣٩ هـ / ٢٠١٧ م، ١٤٤٢ هـ / ٢٠٢٠ م)، ص ص ١٣٤ - ١٦٣.



الدراسة الخامسة

قلعة (الثريا) ودرب جازان العليا في ضوء
المصادر التاريخية

بقلم : أ.د . محمد بن منصور حاوي



الدراسة الخامسة

قلعة (الثريا) ودرب جازان العليا في ضوء المصادر التاريخية

بقلم: أ. د. محمد بن منصور حاوي^(١)

م	الموضوع	الصفحة
أولاً:	المقدمة	٢١١
ثانياً:	قلعة الثريا	٢١٩
	١- سبب التسمية	٢١٩
	٢- تأسيس القلعة وتاريخ تشييدها	٢٢٠
	٣- مساحة القلعة	٢٢٢
	٤- الكوارث وحالات الخراب التي مرت بها القلعة	٢٢٣
	أ- حملة الشريف محمد بن بركات وخراب القلعة والسور عام (٨٨٢هـ / ١٤٧٧م)	٢٢٤
	ب- خراب جازان وقلعتها عام (٩٣٤هـ / ١٥٢٧م)	٢٢٨
	ج- خراب القلعة والسور عام (٩٣٤هـ / ١٥٢٧م)، ثم إعادة إعمارها	٢٢٩
	د- حملة جيش المطهر بن شرف الدين وخراب القلعة عام (٩٧٥هـ / ١٥٦٧م)، ثم إعادة بنائها على يد الشريف أحمد بن غالب	٢٣٣
	هـ- حالة القلعة بعد خروج الشريف أحمد بن غالب	٢٣٦
ثالثاً:	الخاتمة : نتائج وتوصيات	٢٣٧

(١) الدكتور محمد حاوي من مواليد قرية السلامة في محافظة صبيا عام (١٣٨١هـ / ١٩٦١م) ، حصل على درجة الدكتوراه عام (١٤٢١هـ / ٢٠٠٠م) ، وهو الآن على درجة أستاذ في التاريخ الإسلامي، عضواً في عدد من اللجان والمؤسسات العلمية والأكاديمية عمل رئيساً لقسم التاريخ في جامعة الملك خالد (١٤٢٩هـ - ١٤٣٥هـ / ٢٠٠٨م) ، أنجز عدداً من البحوث العلمية مثل: (١) تحقيق كتاب تجارب الأمم وتعاقب الهمم لأبي علي مسكويه (رسالة لدرجة الماجستير) . (٢) منهج المؤرخ محمد بن يوسف الصالحي في كتاب السيرة الشامية (سبل الهدى والرشاد) (رسالة لدرجة الدكتوراه) . (٣) موقف النبي (ﷺ) من الأسرى في ضوء ما ورد في مؤلفات السيرة النبوية . (٤) الأوضاع الأمنية لحجاج اليمن في عصر الدولة الرسولية (جمعية التاريخ والآثار في دول مجلس التعاون الخليجي) . (٥) الفقيه العلامة محمد بن علي بن عمر الضمدي، دراسة تاريخية (مجلة الدرعية) . (٦) ملامح الحياة العلمية والفكرية في المخلاف السليمانى خلال العصور الإسلامية الوسيطة (مجلة العلوم الإنسانية - كلية البنات الأزهر) . (٧) دور حجاج اليمن في الحياة التجارية بمكة المكرمة في عصر الدولة الرسولية (الجمعية التاريخية السعودية) . (٨) علماء وأعلام المخلاف السليمانى في القرن الحادي عشر الهجري من خلال مخطوطة فوائد الارتحال للحموي . جمع ودراسة توثيقية (جمعية التاريخ والآثار بدول مجلس التعاون الخليجي) . (٩) رحلة الإمام عبد الله بن علي المؤيدي إلى بلاد عسير من خلال مخطوطة التحفة الغنبرية لأبي علامة. توثيق ودراسة . (١٠) كتاب النور اللاتع في مشائخ صالح (دراسة وتحقيق) . وهناك بحوث ودراسات علمية أخرى بعضها منشور وأخرى في طريقها للنشر . (ابن جريس) .

أولاً: المقدمة :

(*) القلاع والحصون في المخلاف السليماني (منطقة جازان) :

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه. وبعد: تعتبر القلاع والحصون من الآثار التاريخية الهامة والشواهد السياحية العسكرية المميزة كما أنها مصدر أثاري مهم للباحثين ، والمؤرخين عند إجراء دراسات تتعلق بتوضيح الجوانب السياسية والحضارية بمجمل عام^(١). ومنطقة جازان أو ما كان يسمى بالمخلاف السليماني- الممتد من الشرجة (الميناء القديم المندثر) إلى أطراف حلي بن يعقوب- التي تقع حالياً في جنوب المملكة العربية السعودية^(٢)، من المناطق الهامة والغنية بآثارها ، وتاريخها ، حيث تعد القلاع والحصون من أهم المعالم الأثرية التي تنتشر في أكثر من موقع ، سواء ما اندثر منها واختفت معالمه ، أو تلك التي لا تزال أطلالها شاهدة على أهميتها ومكانتها التاريخية والعسكرية، وطرازها المعماري الذي يدل على تقدم أساليب البناء لوسائل الدفاع العسكرية في المخلاف قديماً . ولا يمكن حصر جميع القلاع والحصون في المنطقة في هذه المقدمة وإنما نشير إلى بعضها مما اندثر، أو لا يزال بعض أطلاله ماثلاً إلى الآن ينتظر اهتمام الجهات المعنية وعنايتها بالترميم والحماية.

فمن أشهر القلاع الموجودة الآن قلعة " أبي عريش " التي يُطلق عليها أكثر من مسمى وهي قديمة التأسيس ، حيث يعود تأسيسها إلى القرن العاشر الهجري، ثم جردها الأتراك- عندما سيطروا على المنطقة. في العام (٩٩١هـ/١٥٨٣م) ، وكلمها وقع بها الخراب تم تجديدها حتى كان آخرها في عهد الشريف حمود آل خيرات ولا تزال أطلالها قائمة^(٣). ومن القلاع الماثلة الآن قلعة الدوسرية الواقعة في وسط مدينة جازان الساحلية ، وتقع على جبل متوسط الارتفاع تطل على المدينة من جانب، والبحر من جانب آخر^(٤). ومن القلاع قلعة المعنق في محافظة الحرت بناها الأمير

(١) نشاهد في مناطق جنوب المملكة العربية السعودية الكثير من الحصون والقلاع والقرى القديمة ، التي تستحق دراسات علمية أكاديمية . ونأمل أن نرى جامعات الجنوب المحلية نهتم بهذا التراث المعماري الذي يعكس صورة تاريخية حضارية لهذه البلاد العربية . (ابن جريس) .

(٢) لقد تجولت في أرجاء هذه البلاد ، وهي فعلاً تحتوي على بعض الآثار العمرانية ، وقد اندثر الكثير منها، ونأمل أن نرى الهيئة العليا للسياحة وكليات السياحة والآثار في بلادنا تدرس وتهتم بهذا الموروث الحضاري المهم . (ابن جريس) .

(٣) علي بن عبد الله النعمان الضمدي، العقيق اليماني (مخطوط مصور عن نسخة محمد نصيف بمكتبة جامعة الملك عبد العزيز) ، ص ٣١٣ .

(٤) يبدو من كلام البهكلي في نفع العود أن أول من بناها هو الشريف حمود آل خيرات. انظر: ص ٢٥٤، بتحقيق فؤاد

عز الدين بن الحسين بن عز الدين القطبي، واتخذها سكناً ومركز دفاع عقب خروج القطبيين من جازان العليا^(١). والجدير بالذكر أن بعض جدران الغرف الداخلية للقلعة لاتزال قائمة، وإن كانت الأشجار قد غطت أغلب أطلالها^(٢) ومنها كذلك قلعة (مختارة) وهي قلعة بناها الحسن بن خالد الحازمي، وزير الشريف حمود آل خيرات، وتقع إلى الشرق من مدينة ضمد الحالية التي قامت على أنقاض ضمد القديمة^(٣) ولا تزال بعض أطلالها متماسكة^(٤) كما أن هناك العديد من القلاع في مواقع مختلفة من المنطقة، أو في سهولها وجزرها، ولعل أشهرها قلعة الأتراك بفرسان، حيث لاتزال مبانيها متماسكة في أجزاء منها^(٥). ومع كثرة هذه القلاع، والحصون، فإن قلعة جازان العليا (الثريا) موضع البحث كانت أبعد صيتاً وأشهر ذكراً على الرغم من اندثارها، واختفاء معالمها لارتباطها بأحداث تاريخ حكام المخلاف وتعرضها لحمولات عسكرية أدت بها في النهاية إلى الخراب والهدم .

(*) **جازان العليا** : على الرغم من ورود لفظ (جازان) في بعض النصوص القليلة القديمة عند الهمداني وغيره^(٦). فإنه من غير الواضح ما إذا كان المقصود بهذا اللفظ اسم الوادي الذي هو بطبيعة الحال أقدم من اسم المدينة أم هو اسم للمدينة نفسها؟ والمعروف أن أسماء القرى والمدن الواقعة على الأودية إنما تأخذ اسمها من اسم الوادي الواقعة عليه كضمد، وصبيا، وبيش وغيرها^(٧). لذلك لا يبعد في هذه الحال أن تكون جازان قد أخذت اسمها من وادي جازان المشهور^(٨). وأياً ما كان الأمر، فإن

الشامي، صنعاء، (١٤٢٥هـ)، وعلي جابر شامي، دليل المواقع الأثرية في منطقة جازان، طبع وإشراف إدارة العلاقات العامة بإمارة منطقة جازان . د ت ، ص ٢٠ .

(١) البهكلي، العقد المفصل، ورقة ٧ .

(٢) علي جابر شامي . المرجع السابق، ص ٢٦ .

(٣) البهكلي، نفع العود، تحقيق الشامي، ص ٢٥٤، ومحمد حيدر النعمي، الجواهر اللطاف في أنساب أشراف صبيا والمخلاف (مخطوط مصور عن مجموع بمكتبة الكبسي، صنعاء رقم ٢٦، ص ٤١، بترقيمي) .

(٤) حجاب الحازمي، القاسم بن هتيميل، حياته من شعره، مطابع الشرق الأوسط، ط ١، الرياض، ١٤٢٤هـ، ص ٤٧، هامش (٢) وهي المسماة الآن بقلعة الحمى. (علي جابر شامي، المرجع السابق، ص ٢١) .

(٥) علي جابر شامي، المرجع السابق، ص ٢٨ .

(٦) في صفة جزيرة العرب . للهمداني، تحقيق الأكوع، الرياض، دار اليمامة، (١٣٩٤هـ)، ص ٧٦، ١٢٦، وانظر المقدسي، أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، دار السويدي للنشر، ط ١، (٢٠٠٢م) ص ١٠٥، عندما ذكرها ضمن المخاليف في اليمن .

(٧) انظر العقيلي، مقالات رصينة وتحقيقات أمينة، مطبوعات نادي جازان الأدبي . (١٤٢٠هـ)، ٩٤ .

(٨) علي جابر شامي، البيان في توثيق تسمية جازان، مقال بمجلة مرافئ، نادي جازان الأدبي، ص ٧٤٧، محرم ١٤٢٦هـ / مارس ٢٠٠٥م)، ص ١٩٥ .

جازان العليا^(١) لم تشتهر وتصبح عاصمة للمخلاف إلا بعد سقوط إمارة السيلمانيين بعد مقتل ، أو وفاة الأمير المؤيد بن قاسم أمير المخلاف حينها سنة (٦١٥هـ/١٢٠٨م) تقريباً نتيجة الصراع مع الأيوبيين في اليمن^(٢). ومن المرجح أنه عقب ذلك انتقل فرع من الفوادم إلى جازان ورأوا فيها مكاناً استراتيجياً تتحقق فيه مزايا عديدة ما بين وقوعها على حرة مرتفعة^(٣). وخصوبة الأراضي ، وتوفير المياه الصالحة للشرب والزراعة ، حيث ملاصقتها للضفة الجنوبية من وادي جازان وهي أمور لا تتوافر في عثر التي كانت عاصمة للمخلاف السليماني قبل جازان . لكننا لا نعرف على وجه الدقة متى تأسست جازان العليا وأصبحت عاصمة للمخلاف؟ كما لا نستطيع الجزم بمن اتخذها عاصمة للمخلاف من أمراء الفوادم حكام المخلاف وقت ذاك^(٤) ، وربما كان هذا الغموض دافعاً لبعض مؤرخي المخلاف للاجتهاد في معرفة تاريخ التأسيس ، وأول من اختطها . فيذهب المؤرخ النمازي في كتابه: " خلاصة السلاف " إلا أن اختطاط جازان الأعلى كان في زمن آخر ملوك الأشراف الفوادم الشطوط أهل باغته الأمير وهاس بن سليمان صاحب جازان المشهور بالمقلم ... إلخ^(٥). وعلى الرغم من أن هذه المعلومة تفرد بها النمازي إلا أن اللبس والغموض قد اكتنفها ، ومع ذلك فإنها تثير العديد من التساؤلات حول شخصية المقلم ، من هو؟ ومتى كان حكمه للمخلاف؟ وغيرها من أمور ليس هذا البحث موضع مناقشتها^(٦). ولعلنا نستنتج في ضوء ما ذكره النمازي أن انتقال مدينة جازان العليا من مرحلة كونها قرية إلى عاصمة للمخلاف كان في زمن الأمراء الفوادم مع عدم التسليم بما ذهب إليه النمازي من تحديد اختطاط المدينة ، لأن الأمير وهاس بن سليمان الذي يذكر أنه كان آخر أمراء الفوادم الشطوط أهل باغته لا يمكن أن يكون هو الذي اختط جازان الأعلى : لأنها كانت موجودة منذ القرن السابع الهجري ، وهي مقر الأمراء

(١) سميت بالعليا تمييزاً لها عن جازان البندر عاصمة المنطقة الآن الواقعة غرب الأولى على ساحل البحر، العقيلي ، المعجم الجغرافي (منطقة جازان) ، دار اليمامة للنشر ، الرياض، (١٣٨٩هـ) ، ص١٠١ ، والآثار التاريخية في منطقة جازان ، ص٢٧.

(٢) العقيلي ، المخلاف السليماني ، دار اليمامة للبحث والنشر ، ط٢ ، ١٤٠٢هـ ، ج١ ، ص٢٠٨ ، والزليعي ، مدينة جازان الأثرية ، مجلة الدارة ، ٢٤ ، ص٢٠ ، ١٤١٥هـ ، ص١٠١ .

(٣) هي ما يسمى بالمراح وهي حرة مرتفعة تكثر بها الصخور البركانية ولعلها ما كان يطلق عليه جبل الجرد ، حيث يذكر العقيلي أن جازان العليا تقع فوق جبل الجرد وتمتد إلى ضفة وادي جازان من الشمال وهو موقع استراتيجي يجعل المدينة ترتفع عن عدوة الوادي الجنوبية حتى تكاد تطل عليه ، العقيلي ، تاريخ المخلاف السليماني ، ج١ ، ص٢٦١ ، حاشية رقم (١) .

(٤) الزليعي ، مدينة جازان الأثرية في ضوء نقش مؤرخ سنة (٨٦٨هـ/١٤٦٤م) ، ص٩٧ .

(٥) خلاصة السلاف (مخطوط مصور عن نسخة بيد الموكلي بقرية أبي السلع . بيش . غير مرقمة) ورقة ١٢ ، ٥٥ بترقيمي .

(٦) تناول جوانب هذا الموضوع الأستاذ علي جابر شامي في بحثه ، البيان في توثيق تسمية جازان فانظره .

الغوانم الذين عاصر بعضهم شاعر المخلاف ابن هتيميل (ت ٦٩٤هـ / ١٢٩٦م) بدليل ورودها في قصائده التي مدحهم بها كما ستأتي الإشارة. هذا إلى أن الأمير وهاس بن سليمان صاحب باغثة. إن كان هو المقصود بلقب المقلّم في نص النمازي^(١). كان معاصراً لأمير جازان الغانمي في النصف الأخير من القرن السابع الهجري وهاس بن محمد بن هاشم بن غانم ، يدل على ذلك قول الشاعر ابن هتيميل المعاصر للثلاثين من قصيدة له يؤنب وهاس بن محمد الغانمي صاحب جازان .

وهاس أغنيك لا وهاس باغثة أميرها ابن سليمان بن منصور^(٢) وبدأت بعد ذلك ، نتيجة الضربات التي نزلت بها ، تفقد أهميتها ، وخاصة بعد نزوح الأهالي منها ، ومفارقتهم لها ابتداءً من حملة أبي نمي عام (٩٤٣هـ / ١٥٣٦م) ، وهدم القلعة والمباني السكنية وطرد السكان منها ثم لحقها الخراب بعد ذلك كما سيأتي تفصيله لاحقاً.

أما في وقتنا الحاضر فإن جازان العليا قد اندثرت وقامت على أطلالها قرية صغيرة يطلق عليها وعلى بقايا المدينة المندثرة قرية " الجدر " وهي تقع على بعد (٨ كم) إلى الشمال الشرقي من مدينة أبي عريش وإلى الشرق من قرية حاكمة ، وتطل على وادي جازان المشهور من الناحية الجنوبية له ، حيث أقيم قريبا منها مشروع سد وادي جازان ، وأطلال المدينة مغطاة بغابة من شجر الأراك الذي يمتد على مساحة كبيرة منها ويبدو أن هذه الأشجار كانت تغطيها منذ زمن متقدم حيث يذكر كل من النعمان الضمدي (ت: ١٠٦٤هـ / ١٦٥٣م) في العقيق اليماني ، وكذلك البهكلي (ت ١١١٤هـ / ١٧٠٢م) في كتابه العقد المفصل أن الأراك كان يغطي مساحة كبيرة منها ، بحيث لا يمكن تبين البقايا ، اللهم إلا ركام الحجارة ، وبعض أطراف السور ، وما يمكن أن يكون في زمن سالف قصور أو مبان وحصون من بقايا أساسيات غطيت بأشجار الأراك الضخمة كذلك.^(٣)

(١) المقلّم شخصية يكتنفها الكثير من الغموض ولا يمكن كما قال الزيلعي في رده على العقيلي أن يكون وهاس بن سليمان هو المقلّم إلا أن يكون مقلماً آخر ، انظر: الأوضاع السياسية هامش ٢ ، ص ص ١٣٩. ١٤٠ وربما كان من ذرية سليمان بن وهاس بن سليمان بن منصور أمير باغثة .

(٢) ابن هتيميل ، ديوانه المسمى (درر النحور) دراسة وتحقيق عبد الولي الشميري ، ط١ ، صنعاء (١٩٩٧م) ، ج١ ، ص ٤٢٨ ، ق ١٠٤ .

(٣) يتبين ذلك لكل من زارها . وقد زرتها في ذي الحجة من العام (١٤٢٦هـ) . كما زارها العقيلي والزيلعي وأعطيا نفس الوصف (انظر: الآثار التاريخية للعقيلي ، ومدينة جازان الأثرية في ضوء نقش للزيلعي) ..

(*سور جازان العليا (درب النجا) :

وردت ألفاظ "درب النجا" "درب" "الدرب" مقرونة غالباً باسم جازان العليا / سواءً في شعر ابن هتيمل أو الجراح بن شاجر، أو عند مؤرخي المخلاف، ويبدو أنهم قصدوا من وراء ذلك تمييز جازان العليا بدربها المشهور أو سورها، حيث أنها المدينة الوحيدة في المخلاف السليماني التي كانت محاطة بسور ذي أبراج^(١). وقد وردت الإشارة إليه عند شاعري المخلاف الأنفي الذكر وذكرنا من منعمته وقوته وعلوه وسماكته، وكثرة أبراجه مما هو ماثوث في ثنايا ديوانيهما.^(٢) بيد أننا مع كل هذا نجد بعض الباحثين يذهبون إلى أن المقصود بلفظ "درب النجا"^(٣)، أو "درب جازان" إنما هو اسم للمدينة نفسها^(٤). وهذا في رأبي ليس صحيحاً إذ إن لفظ "الدرب" أو "درب" هنا إنما المقصود به السور الذي كان يحيط بقسم من مدينة جازان العليا، ولشهرته وما كان يتمتع به من ميزات القوة والمتانة وصخوره الضخمة التي مازال بعضها ماثلاً إلى الآن. لذلك قرن باسم جازان حتى كاد أن يطفى عليها. وأصبح من ثم يكتفي باسم السور دلالة على المدينة، والدليل على ذلك أن لهذه التسمية ما يماثلها في بلاد اليمن المجاورة التي تتطابق مع المخلاف السليماني، وتدمج اجتماعياً وعمرانياً وسكانياً وحضارياً نتيجة الجوار، وتمائل الثقافات، والعادات بل الخضوع في بعض الفترات وبخاصة في عهد الرسوليين والطاهرين للهيمنة السياسية، لذلك فقد تشابهت وتمائلت أشكال العمارة، ومسمياتها وأنواعها، وبالرجوع إلى تسميات الأسوار عند بعض المؤرخين اليمنيين نجد أنهم يطلقون لفظ "الدرب" و"درب" على الأسوار، أو الحيطان العالية، والمتينة المحيطة بالمدن والقلع. فمثلاً يذكر المؤرخ الشريف في اللآلئ المضيئة أن الإمام أبا القاسم العياني (٣١٠-٣٩٥هـ / ٩٢٢-١٠٠٤م) أمر بهدم "درب صعدة" قال: "وهو حائط دون القرية فهدم"^(٥). كما أطلق لفظ الدرب كذلك على سور صنعاء المحيط بها فقال في أثناء كلامه عن حركة الإمام "يوسف الداعي" "فأمر بهدم درب صنعاء فهدم"^(٦). ويعضد ما

(١) العقيلي، الآثار التاريخية لمنطقة جازان، ص ٥١، والجراح بن شاجر الذروي، ص ٢٢.٣١. والعقد المفصل، ص، (١٢٠) (ملحق المحقق).

(٢) انظر: ديوان ابن هتيمل، تحقيق الشميري في ٣ مجلدات. وديوان الجراح تحقيق العقيلي. مطابع الرياض الرياض، (١٣٨٥هـ/١٩٦٩م)، ص ٢٢.٣١.

(٣) يظهر أنه سمي بذلك نظراً لمنعمته، فهو طريق النجاة لمن تحصن به.

(٤) العقيلي، الآثار التاريخية، ص ٣٧، وتاريخ المخلاف السليماني ج ١، ص ٢٦١، والزليعي، مدينة جازان الأثرية في ضوء نقش مؤرخ سنة ٨٦٨هـ، مجلة الدارة، ص ٩٧، وعلي جابر شامي، البيان في توثيق اسم جازان، ص ١٩٧ وما بعدها، وغيرهم.

(٥) مخطوط مصور عن نسخة مكتبة الجامع الكبير الغربية بصنعاء (ق ٢٥ ورقة ١٠٥).

(٦) ق ٢ ورقة ١٠١، وانظر أمثلة أخرى في كتاب، قرة العيون بأخبار اليمن الميمون لابن الديبع، تحقيق محمد

ذهبنا إليه أن المؤرخ النمازي صاحب "خلاصة السلاف" نص صراحة على أن الدرب إنما هو سور جازان الأعلى فقال في معرض كلامه عن حملة "أبي نمي" شريف مكة على جازان عام (٩٤٣هـ / ١٥٣٦م) "... ودخل جازان فخرّب القلعة، ودمرها إلى الأرض، وأخرّب الدرب"^(١). كما أن لفظ "الدرب" ورد في شعر ابن هتيمل (القرن السابع الهجري) في أثناء بعض القصائد التي كان يمدح بها بعض أمراء جازان ومنها قوله :

فأدلج من بروج " الدرب " يهوي إلى السلبين من أهل ومال
وقوله من قصيدة أخرى :

إذا ما رماح الخط لم تُرد هارباً إلى " الدرب " أردته رماح المكائد
وما خلفه من حصن صرح ممرّد وكان كشيطان من الجن مارد
أو قوله :

لاذ بالدرب ثم أدلج لم يسترجد فلما نزلتم بحصاره^(٢)
كما ورد لفظ الدرب عند الشاعر الجراح بن شاجر الذروي أحد أشهر شعراء المخلاف
السليمانى في القرن العاشر وكان مقرباً ولصيقاً بالأمير المهدي بن أحمد بن دريب أمير
جازان في الفترة ما بين (٩١٢ - ٩٢٥م / ١٠٥٦ - ١٠٥٩م) بل إن شهرة الأمير المهدي استمدت
صداها من مدائح هذا الشاعر الذي وضع ديواناً كان معظمه في مدح الأمير المهدي^(٣).

فمن ذلك قوله :

حين قابلت درب جازان لاحت وبدت لي قصورها الخالدية^(٤).
وقوله :

فعطفاً فإن الدرب أصبح مغضباً وكاد لرحبان عليه يحارب^(٥)
ونستنتج أن هذه الألفاظ تدل على أن المراد بالدرب تحديداً السور المشهور المحيط
بالمدينة، أو بجزء منها بما فيها القلعة وقصور الأمراء وليس المقصود به اسم جازان

الأكوع ، ط ٢، (١٤١٩هـ / ١٩٨٨م) ، ص ٤٢٠، والأدلة على أن لفظ الدرب يقصد به السور كثيرة ، انظر أمثلة
لذلك في مآثر الأبرار في تفصيل مجملات جواهر الأخبار لابن قند ، مؤسسة الإمام زيد الثقافية، صنعاء ، ط ١،
(١٤٢٣هـ / ٢٠٠٢م) ، ج ، ص ٦٦٥ وغيرها.

(١) ورقة ٥١ من خلاصة السلاف .

(٢) ديوان ابن هتيمل بتحقيق الشميري ، ج ١، ص ٢٦٧ ، ٤٤١ ، ج ٢، ص ٧٢٢ وغيرها .

(٣) العقيلي ، الآثار التاريخية ، ص ٤٤ .

(٤) ديوان الجراح ، ص ٨٩ .

(٥) ابن هتيمل ، ديوانه بتحقيق الشميري ، انظر القصائد رقم ٧ ، ٥٩ ، ٧٧ ، ١٠١ ، ١٠٤ ، ١١١ ، ١١٤ ، ١١٩ ، ١٢١ ، ٢٢٨ ،
٢٣٩ ، ٢٤٠ ، ٢٥٢ ، ٢٧٢ ، ٢٨٥ وغيرها .

العليا عن غيرها من مدن "المخلاف السليمانى" ويقود هذا إلى أن نتساءل متى بنى السور؟ وفي عهد أي من الأمراء بُني؟، والحقيقة أننا لا نكاد نقف على إجابة قاطعة واضحة تستند على معلومات أوردها مؤرخو المخلاف أو غيرهم تذكر تأريخ تأسيس وبناء السور أو اسم الأمير الذي بناه . وكل ما يمكن قوله هنا ، أن السور كان موجوداً في عصر الشاعر ابن هتيميل ، أو قبله بـدليل ما ورد الإشارة إليه في شعره الذي مدح به بعض أمراء الغوانم حكام وادي جازان الذين كانوا يتخذون من جازان الأعلى عاصمة لهم كما تقدم ، ونجد أن أبرز شخصيتين عاصرتا الشاعر ابن هتيميل في القرن السابع الهجري هما وهاس بن محمد بن هاشم بن غانم وابنه محمد بن وهاس أمير جازان في ذلك الوقت^(١). وبناءً على ما ورد في شعر ابن هتيميل من أوصاف لقصور جازان، ودربها، وتحصيناتها ، وتشبيهها بالصرح الممرد أو كشيطنان من الإنس مارد^(٢) ، يمكننا أن نستدل منها على أن المدينة كانت وقتها محصنة ومن أهم تحصيناتها دربها، أو سورها الضخم المنيع ذي الأبراج العديدة عالية البنيان^(٣).

كما نستدل من بقايا السور الماثلة حالياً أنه لم يكن مضروباً على جميع المدينة ، بل على جزء منها ربما كان هو القسم الأكبر من المدينة أو هو الحي الرئيسي الذي يضم قصور الامراء الغوانم وأقاربهم وحاشيتهم في المدينة وقلعتها الثريا^(٤) ، بدليل وجود آثار مبان تقع خارج السور وبخاصة من الناحيتين الشرقية والجنوبية^(٥). ولا نعلم علم اليقين أن كانت هذه المباني الواقعة خارج السور من عهد الأمراء الغوانم والقطبيين أمراء جازان الذين حكموا خلال الفترة بين القرنين السابع والعاشر الهجريين أم استحدثت بعد ذلك؟ لكن الواقع يدل على أنه كانت هناك مساكن ومبان خارج السور وقتها بدليل ورود معلومات عنها في بعض المصادر ، حيث يذكر المؤرخ ابن فهد مثلاً في أحداث حملة محمد ابن بركات على جازان عام (٨٢٢هـ/١٤٧٧م) أن المباني كانت داخل المدينة وخارج سور

(١) ديوان ابن هتيميل ، ج١ ، ص ٤٤١ وغيرها .

(٢) المصدر نفسه ، ج٢ ، ص ٧٨٩ ، ج١ ، ص ٤٢٩ ، وانظر العقيلي ، الآثار التاريخية في منطقة جازان ، ص ٣٨ ، ٣٩ ، ولاتزال بقايا أبراج السور ظاهرة إلى الآن .

(٣) العقيلي ، الآثار التاريخية ، ص ٥٣ ، ٥٥ .

(٤) وضعت وكالة الآثار بوزارة التربية والتعليم بالتعاون مع إدارة المتحف والآثار بجازان مسقطاً أفقياً تقريباً لبقايا السور وهو غير دقيق بطبيعة الحال .

(٥) انظر ، الآثار التاريخية في منطقة جازان ، ص ٥١ .

المدينة^(١)، ويظهر أن كثيراً من المباني الواقعة خارج السور كانت عششاً^(٢)، ويستنتج من بعض النصوص أن السور كانت له بوابتان غربية وشرقية^(٣)، يدل لذلك أن الشريف محمد بن بركات في حملته على جازان عام (٨٨٢هـ/١٤٧٧م) وأثناء السعي بين الأميرين للصلح اشترط شريف مكة للموافقة عليه أن يدخل المدينة من باب ويخرج من الآخر، فرفض أمير جازان^(٤). وربما كان له أكثر من باب، حيث يذكر العقيلي في زيارته لبقايا المدينة عام (١٣٧٩هـ/١٩٥٩م) أن البوابة الرئيسية للسور تقع في الناحية الغربية^(٥). والذي يظهر من بقايا الحجارة الضخمة الموجودة حالياً أن بناء السور كان قوياً محكماً، ويتمتع بمتانة عالية بدليل أن شريف مكة أبانمي بن بركات اضطر في أعقاب حملته عام (٩٤٣هـ/١٥٣٦م) على جازان أن يبقى عاماً كاملاً حتى ينتهي من هدمه القلعة وسورها، وإن كانت بقاياها تشير إلى أنه لم يهدمه بالكامل وإنما هدم منه أجزاء^(٦). وظهر من خلال الزيارة التي قمت بها أن هناك بوابة تقع في الضلع الجنوبي للسور ولم أستيقن إن كانت هناك بوابة من الجانب الشمالي لزحف المساكن على جزء كبير من السور.

على أية حال تعرض السور عبر حكم الغوانم والقطيبين ومن بعدهم إلى الهدم والإخراب عند كل حملة حربية تشن على حكام المدينة، سواءً كانت هذه الحملات من مكة أو من اليمن كما سيأتي توضيح ذلك في المباحث الآتية. وفي كل مرة كان يعاد ترميم السور مع ترميم القلعة، وإعادة بنائها حتى أخرج وأهمل في القرن الثاني عشر الهجري عقب طرد الشريف أحمد بن غالب من المخلاف عام (١١٠٥هـ/١٦٩٣م)، وقد زار المؤرخ محمد بن أحمد العقيلي، مدينة جازان الأثرية في عام (١٣٧٩، ١٣٨٣هـ/١٩٥٩، ١٩٦٣م) وترك وصفاً دقيقاً للسور المبني من الأحجار البركانية، حيث يرى أن ارتفاع السور كان يقارب (١٢) ذراعاً، وأن بين كل (٢٥٠) ذراعاً تقريباً برجاً على مدار السور كما أن عرض ما بقي منه يتراوح بين (٦) إلى (٧) أذرعاً وأن محيطه يزيد

(١) في كتابه الدر الكمين بذيل العقد الثمين، تحقيق عبد الملك بن دهيش، مكتبة الأسد، ط٢، مكة ١٤٢٥هـ، ج١، ص١٦.

(٢) نفس المصدر والجزء والصفحة، وانظر كذلك إتحاف الوري، تحقيق عبد الكريم الباز جامعة أم القرى، مكة، ط١، ١٤٠٨هـ، ج٨، ص٦١٣.

(٣) العقيل، الآثار التاريخية، ص٥٤.

(٤) ابن فهد، الدر الكمين، ج١، ص١١٦، إتحاف الوري، ج٤، ص٦١٤.

(٥) الآثار التاريخية في منطقة جازان، ص٥٤.

(٦) جار الله بن فهد، المنى بذيل بلوغ القرى، تحقيق محمد الحبيب الهيلة، مؤسسة الفرقان، ج٢، ص٧٠٠.

على أربعة كيلومترات^(١). كما زار الزيلمي المدينة وذكر أن بعض بقايا السور يصل ارتفاعها في بعض الجهات إلى ثلاثة أمتار^(٢).

ونخلص هنا أن السور كان من أبرز معالم جازان العليا ، وأهم تحصيناتها وأنه كان موجوداً منذ بداية اختطاطها كعاصمة للمخلاف السلیماني في عهد الأمراء الفوانم منذ أوائل القرن السابع الهجري، وأنه المقصود بلفظ " الدرب " أو " درب جازان " الذي يرد في المصادر ، والكتابات التاريخية المحلية.

ثانياً : قلعة الثريا :

١- سبب التسمية :

من أهم التحصينات والمباني الدفاعية التي كانت تشتمل عليها مدينة جازان العليا المندثرة القلعة المشهورة التي عرفت عند مؤرخي المخلاف السلیماني بقلعة (الثريا) ولم نقف على معلومات تدلنا على سبب هذه التسمية ، ومتى أطلق عليها هذا المسمى ؟ بيد أن أول إشارة وردت عن هذه التسمية كانت في بعض الأبيات الشعرية التي تضمنها ديوان شاعر المخلاف في القرن العاشر الهجري الجراح بن شاجر الذروي الذي كان شاعر الأمراء القطبيين الذين حكموا المخلاف السلیماني ما بين (٨٠٣-٩٤٣هـ/١٤٠٠-١٥٣٦م)^(٣). إذ يقول من قصيدة له في مدح الأمير محمد المهدي^(٤) :

وترى (الثريا) سمكها عال على بدر السما وعلاه^(٥)
ويستشف من قوله هذا أن القلعة سامقة البنيان تكاد من طولها تسامت الثريا علواً وارتفاعاً وإشراقاً على غيرها من قصور المدينة ومبانيها. كما يتضح من قول الشاعر

(١) العقيلي ، الآثار التاريخية ، ص ٥٢ .

(٢) انظر : بحثه مدينة جازان الأثرية في ضوء نقش ، ص ١٠١ . وللأسف فيبدو أنه كلما تقدم الزمن زحف السكان على البقية الباقية من آثار السور فقد شاهدت بعض المباني عند زيارتي في ذي الحجة عام (١٤٢٦هـ/٢٠٠٥م) قد اتخذت من بقايا السور أساسات لها وعلى الرغم من محاولات وكالة الآثار تسوير بعض الأماكن والبقايا من السور وأساسيات المباني القديمة إلا أنها في حاجة ماسة إلى تكاتف الجهود من أكثر من قطاع من قطاعات الدولة لدفع عدوان السكان على بقايا المدينة ، والحفاظ على البقية الباقية ، وتشكيل لجان عمل ، وحضريات وتنظيف لأشجار الأراك الهائلة التي غطت المكان.

(٣) على الرغم من شهرته كشاعر المخلاف في القرن العاشر ، إلا أننا لم نجد له ترجمة فيما بين أيدينا (محمد بن أحمد العقيلي، التاريخ الأدبي لمنطقة جازان ، ط١ ، ١٤١١هـ / ١٩٩٠م) ، ج١ ، ص ٢٣٠ وما بعدها .

(٤) هو محمد بن أحمد بن دريب الملقب بالمهدي ، أشهر أمراء المخلاف السلیماني ، كان ممدوح الشاعر الجراح كان جواداً كريماً له مجالس تجمع العلماء والشعراء (النعمي القبي، الجواهر اللطاف) (مخطوط) ، ورقة ٣٦ ، والزيلمي ، الأوضاع السياسية والعلاقات الخارجية ، ص ١٨٦ .

(٥) انظر : ديوان الجراح بن شاجر ، دراسة وتحليل ، محمد العقيلي ، مطابع الرياض ، ط١ ، (١٣٨٥هـ/١٩٦٥م) .

سبب تسمية قلعة جازان بـ (الثريا) . ويؤكد هذا أن الاسم يرد عند مؤرخي المخلاف ويزكرونه في سياق ما يروون من أحداث تاريخ القطبيين دونما إشارة عن سبب هذه التسمية الأمر الذي يعزز ما ذكرناه آنفاً .

٢- تأسيس القلعة وتاريخ تشييدها :

من المشكلات التي يواجهها الباحث في التاريخ المحلي للمخلاف السليماني في العصور الإسلامية الوسيطة قلة المعلومات ، بل ندرتها في بعض الفترات التاريخية المتقدمة ذلك لأن التدوين التاريخي في المخلاف السليماني بدأ متأخراً منذ القرن العاشر الهجري تقريباً ، فقدت بسببه الكثير من أخبار المخلاف في العصور الإسلامية المبكرة والوسيطة ، كما ساهم إهمال المؤرخين الآخرين من مكين ويمينيين في رصد جميع أو أغلب الأحداث المحلية للمخلاف واقتصار بعضهم على ما له علاقة وصله بأحداث مناطقهم فقط أو تلك الأحداث المشتركة ^(١) ، وكان لفقد مؤلفات تاريخيه لبعض مؤرخي المخلاف دور في غموض هذه الفترات من مؤلفات كالعقيق اليماني ، وخلاصة السلاف قد حوت جل ما اشتملت عليه تلك المفقودة ^(٢) . ومع هذا فإن المتوفر من المعلومات لا يشبع نهم الباحث ، ولا يساعد في تغطية العديد من الجوانب التاريخية للمخلاف وبخاصة ما قبل القرن العاشر الهجري التي مازال يكتنفها الكثير من الغموض ، وما زالت الفجوات التاريخية قائمة لا يمكن سدها لندرة أو انعدام المعلومات التي تعين الباحث في عمله ^(٣) . لذلك لا نكاد نجد فيما وقع تحت أيدينا من تواريخ المخلاف المحلية شيئاً يدل على تاريخ بناء وتأسيس القلعة ، كما لم نقف على معلومات مؤكدة عن الأمير الذي أمر بتشييد قلعة (الثريا) . اللهم إلا إشارات وردت عند البهكلي لم يذكر لها مصدراً محدداً . وهي اجتهادات في الأغلب الأعم تذهب إلى (أن العامر لهذه القلعة ليس إلا خالد بن قطب الدين) أول أمراء الأشراف القطبيين الذين أصبحوا حكاماً للمخلاف السليماني بعد بني عمومتهم الأشراف " الغوانم " في أول القرن التاسع الهجري حيث يقول : " أعلم أنني قد طالعت بغية المستفيد في تاريخ مدينة زبيد " للديبع

(١) على اعتبار أن المخلاف السليماني يقع بين الحجاز واليمن ، والتقارب الجغرافي والثقافي والسياسي بين بلاد المخلاف واليمن وبخاصة في العصور الإسلامية الوسيطة ، ولذلك تضمنت بعض كتب التراجم اليمنية الترجمة لعدد من أعلام وعلماء المخلاف .

(٢) أشار عبد الله النعمان ، والنمازي في كتابيهما إلى بعض هذه المؤلفات المفقودة وصرحاً بالنقل عنها في مواضع من كتابيهما .

(٣) تبرز جهود مؤرخ المخلاف المرحوم محمد العقيلي في كتابه المخلاف السليماني وكذلك د. الزلمي في كتابه ، الأوضاع السياسية والعلاقات الخارجية لمنطقة جازان ، ولكن مع ذلك هناك فجوات وقفت قلة المعلومات دون سدها في تاريخ المخلاف المبكر والوسيط .

مطالعة الاستقصاء فلم أره ذكر عمارتها القديمة مع ذكره لملوك زييد وعمارتهم إلى مدة بني طاهر رأس المئة التاسعة ، وطالعت "قرة العيون في أخبار اليمن الميمون" له أيضاً إمراراً لا استقصاء ، ولا إخاله ذكر عمارتها . وبعض تاريخ أبي الحسن الخزرجي ولم أرفيما رأيت ذكراً لعمارتهما ، ولا أظن العامر لها غير خالد بن قطب الدين وأولاده . ولو كان لملوك زييد فيها عمارة لما أغفلها الديبع مع ذكره لعمارة البرك وهي أحقر منها قدراً وأبعد مسافة .^(١) ومع أن المؤرخ النمازي يتابع البهكلي في اجتهاده السابق إلا أنه يطرح مع ذلك رأياً آخر يذهب فيه إلى أن أول من اختط القلعة كان آخر ملوك المخلاف السليماني من الأشراف الغوانم المشهورين بالشطوط ، ولم يقطع برأي جازم بل في كلامه صيغة التضعيف " قيل " حيث يقول في كتابه خلاصة السلاف : " اعلم أن لهذه القلعة المشهورة بالثريا من الأخبار المذكورة في تواريخ اليمن وغيره من الأقطار مما لا يضبطها انحصار^(٢) ، وقد سبق ما ذكرناه أن أول اختطاطها كان في زمان آخر ملوك المخلاف من الأشراف الغوانم المشهورين بالشطوط^(٣) ، وقيل كان اختطاطها في زمن الأمير " خالد قطب الدين " أول ملوك المخلاف من الأشراف القطبيين والله أعلم^(٤) . ولا نستطيع تأكيد ما ذهب إليه العقيلي من استدلاله ببعض شعر ابن هتيمل الذي ذكر فيه " الدرب " والحصن على أن المقصود قلعة الثريا من مثل قوله:

إذا ما رماح الخط لم ترد هارباً إلى الدرب أردته رماح المكائد
وما خلفه من حصن صرح ممرد وكان كشيطان من الجن مارد^(٥)

فما ورد من شعر ابن هتيمل المستشهد به ليس فيه التصريح بوجود القلعة وإلا لذكرها ابن هتيمل باسمها الذي أورده الشاعر الآخر في القرن العاشر " الجراح بن شاجر " خاصة وأنها مما يمكن أن يباهى به ، وإنما ورد لفظ " حصن " في البيت السابق . ومع أنه لا يدل صراحة على قلعة " الثريا " إلا أن هذا اللفظ يؤكد وجود حصون أو حصن

(١) العقد المفصل بالعجائب والغرائب في دولة الشريف أحمد بن غالب ، تحقيق العقيلي ، ص ٥٢ .

(٢) كذا قال وقد نقتب في الكثير من المؤلفات التاريخية اليمنية المطبوعة منها والمخطوطة فلم أجد أحداً ذكرها ولا أشار إليها . ولا أعلم أي تواريخ يذكر ، ولعله اطلع على شيء مما لا يزال الآن مفقوداً أو في حكمه .

(٣) الشطوط هم فرع من الغوانم السليمانيين الذين حكموا المخلاف السليماني : " وكان هؤلاء الأمراء الشطوط بباغثة ويظهر أنهم تفرقوا عقب مقتل الأمير المؤيد على يد الأيوبيين فقسم سكن باغته وهم الشطوط ، وآخر سكن جازان وهم الغوانم (للمزيد من التفصيلات انظر : العقيلي ، تاريخ المخلاف السليماني (بحث منشور بمجلة العصور مج ٦ ، ج ٢ ، يوليو ١٩٩١م) ، ص ٢٦٧ وما بعدها .

(٤) خلاصة السلاف (مخطوط) ورقة ١٠٤ بترقيمي .

(٥) الديوان بتحقيق الشميري ، ج ١ ، ص ٢٦٧ ، وانظر العقيلي ، الآثار التاريخية في منطقة جازان ، ص ٢٨ ، ٥٢ .

في مدينة "جازان العليا" حينها قد تكون قلعة الثريا خاصة مع وصف الشاعر له بأنه (كشيطان من الجن مارد) ، أو حصون أخرى بناها أوائل الأمراء الغوانم في جازان.

٣- مساحة القلعة :

يعتبر البهكلي أول من حاول الإشارة إلى مساحة القلعة في كتابه: (العقد المفصل بالغرائب والعجائب) عند كلامه عن قيام الشريف أحمد بن غالب في عام (١١٠٤هـ/١٦٩٢م)^(١) بإعادة بناء وتشبيد القلعة للتحصن بها أمام الهجمات التي كان يشنها عليه قبائل المخلاف وأئمة اليمن وغيرهم ، وقد اعتمد على رواية غيره في تقدير هذه المساحة ، لذلك لم يورد رأياً قطعياً فقال: "وروى لي بعضهم أنها مسحت فجاءت ثلاثة معاود الإثمن معاد وقيل: ثلاثة معاود وقيراط"^(٢). ويبدو أنه قام بزيارة إلى القلعة عندما بدأ الشريف أحمد بن غالب بالاستعداد لإعادة بنائها. كما سيأتي. فوجد أن جزءها القديم من الجانب الغربي يبلغ بمقاس الذراع سبعة أذرع ونصف ذراع، وأن به باباً قام الشريف أحمد بن غالب بسده^(٣). وبما أن الذراع بالمقاييس الحالية يساوي (٤٨) سم تقريباً فإن ذلك يعني أنه يقارب ثلاثة أمتار ونصف المتر تقريباً^(٤)

وللأسف فإن أطلال القلعة الآن قد محيت تماماً وما بقي منها مما اطلع عليه العقيلي عام (١٣٧٩هـ/١٩٥٩م) فغالبه امتدت عليه مساكن الأهالي الذين أقاموا منازلهم على أطلال مدينة جازان وجزء غطته أشجار الأراك الضخمة حتى أصبح من الصعوبة بمكان تحديداً دقيقاً ، أو حتى تقريباً^(٥) وكان العقيلي قد اطلع في زيارته عام (١٣٧٩هـ/١٩٥٩م) على ما يظن أنه بقايا القلعة فذكر أنها تتكون من عدد من المباني ، وإن جدرانها مطلية بالنورة وأن بها غرفاً كانت يومها متماسكة البنيان في بعض جوانبها ، يصل ارتفاع بعضها إلى ستة أذرع تقريباً ، كما يوجد بداخل القلعة بئر

(١) قدم إلى المخلاف السليماني من مكة وحكمها حكماً غير مستقر لرفض غالب أهلها له ما بين عامي (١١٠١، ١١٠٥هـ / ١٦٨٩، ١٦٩٢م) حيث طرد منها وعاد إلى مكة، العقيلي، تاريخ المخلاف السليماني، ج ١، ص ٢٧٤ وما بعدها.

(٢) انظر مخطوطة الجامع بصنعاء ضمن مجموع ص ٢٧. وفي طبعة العقيلي ص ٥٢ "ثلاثة معاود الإثمن معاد وقيراط" وقدرها العقيلي ب(١٠٤٠٠م^٢) كما قدرها د. الزيلعي بحوالي (٧٠٠٠م^٢) وقوله هذا غير دقيق فإن المعاد يتراوح بين (٣٥٠٠م^٢) و(٤٠٠٠م^٢) وعلى ذلك فهي تتراوح بين (١٠٠٠٠م^٢ وأكثر من ١٢٠٠٠م^٢) أي أنها أكثر من (١٠٠٠م^٢) طولاً في مثلها عرضاً ولا مبالغة في ذلك إذا ما عرفنا سعتها وكثرة غرفها كما ذكر العقيلي الذي زارها عام (١٣٧٩هـ، ١٣٨٣هـ) .

(٣) العقيلي، العقد المفصل، ص ٥٣، ط .

(٤) انظر، سليمان الرحيلي، الطريق النبوي إلى بدر، الدارة، ٣٤، ص ١٤، (١٤٠٩هـ/١٩٨٩م)، ص ٢٣.

(٥) الزيلعي، مدينة جازان الأثرية في ضوء نقش مؤرخ سنة ٨٦٨. مجلة الدارة، ص ٩٩، والمرجح أن البيوت بنيت في المكان الذي يعتقد أن به آثار القلعة، لذلك من الصعب جداً التقيب عن بقاياها في ضوء حالة المكان الآن .

واسعة ، وأغلب مبان وغرف القلعة مردومة ، أو مدفونة تحت ركام الأتربة والأشجار غير أنه لم يذكر مساحتها ، ولعل اندثار الكثير من معالمها حال بينه وبين ذلك ^(١) .

٤- الكوارث وحالات الخراب التي مرت بها القلعة :

قال النمازي في الخلاصة : " واعلم أنه منذ أول اختطاط قلعة جازان المشهورة بالثريا ، فإنها لم تسلم من أمور الخراب ، وغارات الدمار على تكرر الأعوام والدهور إلى هذه العصور فقد توالى عليها العديد من الضربات ، وأتى على بنيانها تكرر الغارات ، وحصل لها أنواع من الخراب والدمار ما يُقارب ثلاث مرات منذ أول اختطاطها إلى آخر عمارة بنائها على يد ابن غالب حال ولايته من الإمام الناصر لدين الله على هذه الجهات" ^(٢) . والحق أن مدينة جازان العليا وقلعتها وسورها قد تعرضت للكثير من التخريب والهدم كما قال النمازي نتيجة الحروب التي شنّها عليها أشرف مكة وأئمة اليمن ، إضافة إلى حملات أمير حلي بن يعقوب وجيوش الأتراك المرابطين في زبيد وغيرها باليمن والمخلاف . ومنذ أن قامت إمارة القطبيين في المخلاف السليماني في عهد أول أمرائها " خالد بن قطب الدين - عام (٨٠٣هـ / ١٤٠٠م) تقريباً ^(٣) واتخاذهم من جازان العليا مستقراً لحكمهم والمدينة تزدهر وتتسع ويتبارى أمراؤها في عمارة الدور والقصور ذات القباب التي تذكرنا بنمط البناء الأندلسي ^(٤) . والغرف العديدة التي تحاكي غرف الجنان كما يقول شاعرهم " الجراح بن شاجر الذروي :

غرف حكّت غرف الجنان وفاخرت ب " محمد" ^(٥) قمر السما وعلاه
أو قوله في قصيدة أخرى :

حين قابلت (درب جازان) لاحت وبدت لي قصورها الخالدية ^(٦)
والمأمل في شعر ابن شاجر الذروي سيتعرف من خلال وصفه للقصور وبهاء بنيانها وحسن عمارتها على أن المدينة كانت تشهد ازدهاراً عمرانياً ورفاهية في العيش وقوة

(١) الأثار التاريخية لمنطقة جازان ، ص ٥٤ .

(٢) خلاصة السلاف (مخطوط) ورقة ١٠٤ . وانظر العقد المفصل للبهكلي ص ٥٢ ، فقد أشار إلى بعض ما حل بالقلعة من الخراب والهدم .

(٣) الزيبي ، الأوضاع السياسية ، ص ١٦١ .

(٤) العقيلي ، جازان العليا في عهد الأمير المهدي القطبي ، مقال منشور في مجلة المنهل ، وأعيد نشره في كتابه ، مقالات رصينة وتحقيقات أمينة ، مطبوعات نادي جازان الأدبي ، ١٤٢٠هـ ، ص ص ٤٠ . ٤٥ .

(٥) هو الأمير : محمد المهدي القطبي الذي حكم بين سنتي (٩١٢ . ٩٢٥هـ / ١٥٢٩ . ١٥٠٦م) تقريباً (الزيبي ، الأوضاع السياسية ، ص ١٨٦ . ٢٠٥) . مختارات من ديوان ابن هتيمل ،

(٦) مختارات من ديوان ابن هتيمل ، تحقيق العقيلي ، ط١ ، الرياض (١٣٨٥هـ / ١٩٦٥م) ، ص ٧٢ .

مضطردة كانت تأتي البقاء في محليتها ضمن منطقة المخلاف السليماني وتدفع إلى التوسع شمالاً وجنوباً، وتسعى إلى التحرر من التبعية حتى ولو كانت إسمية في فترات عديدة. لكن ذلك كان يُجابه برفض من قوة في الشمال تمثلت في أشرف مكة وتوابعها، وسلاطين اليمن من الرسوليين والطاهريين في الجنوب. ومع حالات العداء التي كانت تظهر على السطح بين فينة وأخرى، فإن أول من جرؤ على انتهاك حرمت مدينة جازان الأعلى وضرب أمرائها والعيث فساداً في المخلاف، وهدم قصور جازان، وقلعتها وسورها هم أشرف مكة بنو عمومة القطبيين أمراء المخلاف حينها^(١). وسأتقصى هنا ما مرت به القلعة والسور من نكبات الهدم والإخراب وحالات إعادة الإعمار وما بين ذلك إلى خراب القلعة نهائياً في القرن الثاني عشر الهجري.

أ. حملة الشريف محمد بن بركات وخراب القلعة والسور عام (٨٨٢هـ / ١٤٧٧م).

تعرضت القلعة للخراب والهدم في عام (٨٨٢هـ / ١٤٧٧م) على يد شريف مكة محمد ابن بركات (ت ٩٠٣هـ / ١٤٩٧م) وذلك في أثناء حملته المشهورة على المخلاف السليماني وشنه الحرب على أمير جازان العليا والمخلاف الشريف أحمد بن دريب بن خالد بن قطب الدين. وقد حفلت المصادر المتعددة ما بين مكية ويمانية ومحلية بإشارات عديدة لهذه الحرب وما حل بجازان، وقلعتها وسورها وأهلها من خراب ودمار وانتهكات على يد محمد بن بركات أمير مكة. لكن سياق بعضها يختلف عن البعض الآخر، ففي الوقت الذي تذكرها المصادر المكية المعاصرة ببعض التفصيل، فإن المصادر التاريخية اليمنية والمحلية تذكرها بإيجاز ولا تقدم معلومات واضحة. حتى إن أهم مصدر محلي لتاريخ المخلاف السليماني - العقيق اليمني - يغفلها كلياً. على أية حال يذهب المؤرخون المكيون إلى أن أسباب حملة الشريف محمد على جازان تعود إلى: قيام أمير جازان أبو الغوائر أحمد بن دريب بإيواء الشريف "علي بن بركات" شقيق الشريف محمد^(٢) ومنافسه على إمارة مكة عندما وصل إلى جازان مفارقاً لأخيه لخصومة وقعت بين الاثنين

(١) ذكر بعض المؤرخين اليمنيين أن جازان تعرضت عام (٧٨٢هـ / ١٢٢٧م) لحملة من السلطان الرسولي المجاهد علي كان سببها قيام الشريف صاحب جازان (كذا) باعتراض حجاج اليمن وهم في طريقهم إلى مكة وطلب منهم مكسا عجزوا عن دفعه فعادوا إلى اليمن وبطل حجهم ذلك العام فغضب الملك المجاهد وخرج في عساكر كثيرة إلى جازان فأخربها بعد أن هرب صاحبها الشريف عن مواجهته (الخرجي: الكفاية والأعلام) (مخطوط مصور ورقة ٢٨٠)، والمسجد المسبوك للمؤلف نفسه (مخطوط مصور) - والديبع، فرة العيون (٢٧٧، ٢٢٦).

(٢) هو علي بن بركات بن حسن بن عجلان، شقيق شريف مكة محمد بن بركات. وقعت الخصومة والمنافرة بينه وبين أخيه محمد أكثر من مرة، وارتحل إلى مصر ثم أعيد إلى مكة، ثم فارقها إلى مصر عن طريق جازان بمساعدة أميرها أبي الغوائر. وانظر ترجمته في، الضوء اللامع للسخاوي، دار الجليل - بيروت، ط١، ١٤١٢هـ، ج ٥، ص ١١٧. ١٩٨، إتحاف الوري لابن فهد ٤/ ٤٨٤ وغيرها.

حاول علي إثرها "علي بن بركات" السفر إلى مصر لتقديم شكوى للسلطان قايتباي (ت ٩٠١هـ / ١٤٩٦م) سلطان مصر المملوكي حينها ضد أخيه أمير مكة محمد بن بركات ، وقد حاول علي السفر إلى مصر عن طريق الموانئ الحجازية لكنها أغلقت في وجهه ، وخشي أن يقبض عليه عمال أخيه ويمنع من السفر إلى سلطان مصر فكان أن قدم على صاحب جازان فاستقبله وأكرمه وساعده على الركوب من بندر جازان إلى سواكن ومنها إلى مصر^(١) ، فلما علم بذلك شريف مكة محمد بن بركات غضب ، وعقد العزم على المسير إلى جازان لإقدام الشريف أبي الغوائر أحمد بن دريب على إيواء من ينفيه شريف مكة من عسكريه ومنهم "ذوو عمر"^(٢) الذين كانوا حينها يقيمون عند أبي الغوائر ويحظون برعايته^(٣) وفي حين يفصح هؤلاء المؤرخون عن هذه الأسباب ويضعونها عاملاً رئيسياً في غزو محمد بن بركات لجازان فإن مؤرخي اليمن والمخلاف لا يقدمون أسباباً واضحة لهذه الحملة ويكتفون بالإشارة إلى أن السبب ينحصر في حصول وحشة شديدة لسبب مشهور^(٤) . ويذهب العقيلي إلى أن مطامع أمير مكة في ضم منطقة جازان إلى حكمه ومد نفوذه عليها كان السبب المباشر في حملته تلك ، حيث كان لتخلي الطاهريين في اليمن عن مساعدة حليفهم أبي الغوائر صاحب جازان فرصة لضم جازان^(٥) . لكن الزييلي يستبعد ما ذهب إليه العقيلي بناءً على أن شريف مكة غادر المنطقة بعد فترة قصيرة من تحقيق النصر على صاحبها أبي الغوائر^(٦) .

على أية حال تضافرت هذه الأسباب دفعت بالشريف محمد بن بركات إلى الخروج إلى جازان في عساكر كثيرة واحتفال زائد حتى أنه اصطحب معه جميع أهله من الزوجات والسراي والذرية^(٧) . ولما بلغ جازان في ربيع الأول سنة (٨٨٢هـ / ١٤٧٧م)

(١) بامخرمة، قلادة النحر في وفيات أعيان الدهر . تحقيق محمد عبد النور ، رسالة ماجستير غير منشورة ، جامعة صنعاء ، ج٢ ، ف٢ ، ص ٧٥٩ ، ابن فهد ، إتحاف الوري ، ٦١٢/٤ ، النجم بن فهد ، الدر الكمين ١١٦/١ .

(٢) هم مجموعة من قواد شريف مكة المعروفين بعبيد السلطان ، وهم ممن كانوا موالي ثم أعتقوا وأصبحوا يقودون كتائب تحت إمرة أشرف مكة ، لكنهم كانوا أحياناً يخرجون عن الطاعة ويعيثون فساداً وبخاصة تجاه الآخرين كما كان يطلق عليهم القادة العمرة . (انظر ، التفصيلات في صفحات من تاريخ مكة المكرمة ، تأليف ، سنوك هورخرونيه ، ترجمة علي عودة ، الشيوخ ، نشر دار الملك عبد العزيز ، ج١ ، ص ١٩٦) .

(٣) إتحاف الوري ، ج٤ ، ص ٦١٢ ، والدر الكمين ، ج١ ، ص ١١٦ .

(٤) ابن الديبع ، قرة العيون ، تحقيق الأكوغ ، ط٢ ، (١٤٠٩هـ / ١٩٨٨م) . ص ٤٢٠ ، وفيه الاستفادة تحقيق ، يوسف شلحد ، صنعاء (١٩٨٢م) ص ١٤٨ ، يحيى بن الحسين ، إنباء الزمن (مخطوط مصور عن نسخة المكتبة الغربية بجامع صنعاء) ورقمه ٣٦١ . الشريف . اللآلئ المضيئة (مخطوط مصور) ق٣ ورقة ٤ . والبهكلي ، العقد المفصل بالعجائب والغرائب تحقيق العقيلي ، ص ٥٢ ، والنمازي ، خلاصة السلاف (مخطوط) ورقة ٢٦ بترقيمي وغيرها .

(٥) تاريخ المخلاف السليماني ، ج١ ، ص ٢٦٢ .

(٦) الأوضاع السياسية والعلاقات الخارجية لمنطقة جازان ، ط١ ، (١٤١٣هـ / ١٩٩٢م) ، ص ١٧٤ .

(٧) ابن الديبع ، قرة العيون ، ص ٤٢٠ ، الشريف . اللآلئ المضيئة ، ق٣ ، ورقة ٤ . والبهكلي ، العقد المفصل بالغرائب والعجائب ، ص ٥٢ .

ترددت الرسل بينه وبين صاحب جازان أبي الفوائز فلم ينتظم بينهما صلح على الرغم من تدخل المشايخ بينهما ، وقد اشترط محمد بن بركات أن يدخل مدينة جازان من باب ويخرج من الآخر للموافقة على الصلح ، وهو ما رفضه الشريف أبو الفوائز أحمد ابن دريب ، وخرج بعساكره وصف للقتال أمام جيوش الشريف مكة^(١) . وهنا نقف على وصفين مختلفين بين مؤرخي مكة والمؤرخ بامخرمة . فعلى حين يذهب مؤرخو مكة إلى أنه ما إن بدأ الالتحام بين أوائل عسكر الشريف مكة محمد بن بركات مع عساكر صاحب جازان حتى قام بعض العسكر برمي النار في بعض بيوت أهالي جازان وكان غالبها عششا فعلقت بها النار وانتقلت سريعا بفعل الرياح الشديدة وأحرقتها جميعا ، الأمر الذي أدى لاضطراب صاحب جازان وعساكره ، وكانت الهزيمة وهروب أبي الفوائز من الباب الآخر من المدينة ومعه عساكره ، وأخلوا مدينة جازان فدخلها محمد بن بركات وعساكره ، وعاثوا فيها فسادا قتلًا ونهبًا وإخرابا^(٢) . بينما نجد رواية مختلفة عند " بامخرمة " تتلخص في أن الحرب وقعت بين الفريقين ودارت رحى معركة عظيمة كاد فيها الشريف محمد بن بركات أن ينهزم لولا لجوؤه إلى إغراء مجموعة من جيش صاحب جازان بنقود ذهبية مزيفة كان قد أعدها لمثل هذا الموقف ، لذلك ما إن رأى بوادر الانحلال في جيشه حتى بث في معسكر صاحب جازان من أغراهم بتلك النقود التي كانت قطعاً من الحلقة طلاها بالذهب حتى لا يكاد من يراها يشك أنها ذهب أشرفية خصوصاً كما يقول " بامخرمة " العرب الذين لا يميزون بين وزن الذهب وخضة الفضة ، واستطاع بذلك إفساد الكثير من جيش صاحب جازان ، فتخاذلوا عنه فحلت الهزيمة به وقتل من أصحابه نحو الخمسة عشر^(٣) . ويتفق المؤرخون على أن جيش محمد بن بركات قد ارتكب الفظائع في جازان ، فقتلوا كثيرا من الرجال والنساء والولدان صبورا ، واستأسروا كثيرا من النساء الشرفاء وغيرهن ، وحملوهن معهم إلى بلدانهم ، وانتهكت الحرمات ، وانكشفت العورات ، ولحق نساء صاحب جازان من الذل والإهانة وكشف الحجاب ما لم يكن لأحد في حساب وجري على أهل جازان ما لم يخطر ببال أحد^(٤) . وهذه فظائع عظيمة وظلم كبير وقع من الشريف مكة محمد بن بركات

(١) الضمدي ، العقيق اليماني ، ص ١٧١ ، والنمازي ، الخلاصة ورقة ١٠٤ .

(٢) ابن فهد ، إتحاف الوري ، ج ٢ ، ص ٦١٤ ، وغاية المرام ، تحقيق فهم شلتوت ، جامعة أم القرى ، ج ٢ ، ص ٥٢٤ .

(٣) بامخرمة ، قلادة النحر ، ج ٢ ، ق ٢ ، ص ٧٥٩ .

(٤) انظر ، ابن فهد ، إتحاف الوري ، ج ٤ ، ص ٦١٢ ، والدر الكمين ، ج ١ ، ص ١١٦-١١٧ . وسمط النجوم العوالي للعصامي ، القاهرة ، دت ، ج ٤ ، ص ٢٧٧ ، وابن الديبع ، قررة العيون ، تحقيق الأكوغ ، ج ٢ ، ص ٤٢٠ . وبغية المستفيد ، ص ١٤٨ ، ودرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المنظمة للجزيري ، ص ٢٢٨ ، غاية المرام لابن فهد ، ج ٢ ، ص ٥٢٤ وغيرها .

على أهالي جازان وهو ما أدرك خطره وسوء عاقبته المؤرخ ابن فهد فعلق بقوله : " وكانت نازلة شنيعة عاد وبألها على أهل مكة ، فإنها أقحطت سنين عديدة ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم"^(١) . لكن الغريب أن يُعدَّ العصامي هذه المأساة التي نزلت بأهل جازان " فتحاً مبيناً " ويثني على الشريف ما فعله ، ويرى أنها أدت إلى أن تخافه القبائل وتمتلى من مهابته الصدور"^(٢) .

وقد تعرضت قلعة الثريا وسور جازان " (دربها) للخراب والهدم على يد محمد بن بركات في أثناء حملته هذه فيذكر ابن فهد أن جيش شريف مكة " أخرجوا الحصن ، وجميع ما فيه ، وكان فيه جملة من المتاع والثياب والكتب النفيسة ، وأحرق باقي البلد وخرَّب سورها ، وجميع ما فيها من الدور خلا المساجد"^(٣) . وقال ابن الديبع في وصف ذلك : " فاستباح صاحب مكة جازان وأهلها وأحرقها ، وأخرب سورها وتركها خاوية على عروشها ، ونهبت خزائنه وفيها من الكتب النفيسة شيء عظيم ، ومن السلاح والثياب ما جمعه أبوه وجده " بينما قال في بغية المستفيد : " ونهبت جازان وأحرقت ، وهُدمت دور الخلافة وسور البلد"^(٤) . كما ورد هدم الحصن (القلعة) والسور عند العصامي الذي قال : " وفيها (٨٨٢هـ / ١٤٧٧م) ، غزا الشريف محمد بن بركات جازان ، ونهبها ، وأحرق حصنها ، وأخرب سورها ، وقتل عدة مستكثرة من رجالها ، وغنم شيئاً كثيراً من أموالها ، وأسر طائفة عظيمة من نساءها وأطفالها"^(٥) . ويعتبر هذا الخراب عند مؤرخي المخلاف هو الخراب الأول الذي حل بالقلعة وسور المدينة^(٦) . أما أبو الفوائري أحمد بن دريب فقد عاد إلى مدينة جازان يلم ما تشعث ، ويعيد بناء ما تهدم ، وبقي خاضعا لشريف مكة محمد بن بركات يؤدي إليه مالا معلوماً يظهر أن بعضه كان عينيا مما تنتجه بلاده من الأطعمة وغيرها . حيث يقول العز بن فهد عن ذلك : " وصاحب جازان من تحت أمره ويحمل الخوارج إليه في كل سنة"^(٧) .

(١) انظر ، إتحاف الوري ، ج٤ ، ص ٦١٤ ، والدر الكمين ، ج١٠ ، ص ١١٧ .

(٢) سيمط النجوم العوالي ، ج٤ ، ص ٢٧٧ .

(٣) إتحاف الوري ج ٤ ، ص ٦١٤ ، والدر الكمين ج ١ ، ص ١١٧ ، في كتابه : فرة العيون ، ص ٤٢٠ .

(٤) انظر بغية المستفيد بتحقيق ، عبد الله الحيشي ، مركز الدراسات والبحوث اليمني ، صنعاء ، ١٩٧٩م ، ص ١٥٥ .

(٥) انظر ، سيمط النجوم ، ج٤ ، ص ٢٧٧ . كما أشار إلى ذلك غيره ، انظر ، العز بن فهد ، غاية المرام ، ج٢٠ ، ص ٥٢٤ ، ٥٢٥ وغيرهم .

(٦) النمازي ، خلاصة السلاف ورقة ٢٦ ، والبهكلي ، العقد المفصل ، ص ٥٢ .

(٧) بلوغ القرى في ذيل إتحاف الوري بأخبار أم القرى ، تحقيق صلاح الدين إبراهيم ورفاقه ، دار القاهرة ، دت ج٢ ، ص ١٠٢٠ . والخوارج هي: ما يخرج من غلة الأرض (نقلا عن تحقيق بلوغ القرى ، هامش ٢ ، ص ١٠٢٠) .

وفي عام (٩٢٤هـ/ ١٥١٨م) تعرض المخلاف السليماني وعلى الأخص وادي جازان لهجوم من بني حرام حكام حلي بن يعقوب مدفوعين من شريف مكة^(١). وحاول صاحب جازان في ذلك الوقت الشريف المهدي بن أحمد مواجهةهم ولما لم يستطع المقاومة انسحب إلى مدينة جازان حيث تحصن بقلعة الثريا ودرب المدينة^(٢). فكان أن عاث جيش الحرامي فساداً في وادي جازان وقراه من شرقه إلى غربه، ومن البحر إلى الجبل، ونهبوا الأموال وانتهكوا الحرمات^(٣). واضطر الأمير المهدي صاحب جازان إلى عقد هدنة مع الأمير (قيس الحرامي) تراجع بموجبها إلى بلاده "حلي بن يعقوب"^(٤). وعلى الرغم من أن وادي جازان، وعاصمته جازان العليا قد تعرضت لحملة من العساكر الجركسية النازلة بزييد في اليمن. بقيادة "اسكندر" الذي ما أن علم به أمير جازان حينها الأمير عز الدين بن أحمد حتى فر من مدينته، واختفى ولم يعلم له الجراكسة مكاناً^(٥)، ولم يستطيعوا تحديد الجهة التي هرب إليها واختفى بها. فقاموا بتخريب جميع قرى ومدن وادي جازان بما فيها مدينة جازان العليا وتدميرها^(٦). إلا أنهم على ما يبدو لم يعرضوا للقلعة أو سور المدينة بخراب كبير بدليل أن النمازي يذكر أن الأمير عز الدين عاد إلى درب جازان بمجرد مغادرة الجراكسة عائدتين إلى زييد^(٧).

ب. خراب جازان وقلعتها عام (٩٣٤هـ/ ١٥٢٧م) :

في هذا العام تعرضت جازان وقلعتها الثريا للخراب وذلك على يد القائد الجركسي "سلمان الرومي" عندما خرج من زييد قاصداً جازان لامتناع أميرها يوم أن توقف الشريف أحمد بن المهدي القطبي عن أداء ما عليه من أموال وخيول. للقائد "سلمان الرومي". فخرج إليه من زييد وحط بأبي عريش ودارت مراسلات بين الطرفين ولم تتجح فتقدم قائد اللوند^(٨). "سلمان الرومي" في جيشه وضرب الحصار على الأمير أحمد بن المهدي ثم دخل عليه درب المدينة فلم يستطع صاحب جازان الصمود وحاول

(١) العقيق اليماني، (مخطوط)، ورقة ٦٥-٦٦ من نسخة الجامع بصنعاء، والديبع، الفضل المزيد ص ٢٨١.

(٢) نفس المصدر، ورقة ٦٧، وخلاصة السلاف للنمازي ورقة ٢٠.

(٣) المصدران نفسهما، نفس الصفحة، والفضل المزيد لابن الديبع، ص ٨١.

(٤) الضمدي، الوالي بوفيات الأعيان (مخطوط) ورقة ٦٦ نسخة جامع صنعاء، الزيلعي، الأوضاع السياسية، ص ٢٠٤.

(٥) ذكرت المصادر المحلية أن سبب خروج القائد إسكندر يعود إلى قيام عز الدين بقتل أخيه الأمير المهدي الذي كان حليفاً للقائد إسكندر، خلاصة السلاف، ورقة ٢١. الوالي بوفيات الأعيان ورقة ٦٧.

(٦) النمازي، خلاصة السلاف ورقة ٢٣.

(٧) المصدر نفسه، ورقة ٣٤.

(٨) هكذا أطلق عليهم مؤرخو المخلاف، واليمن ويقصد بهم بقايا الجراكسة الذين خرجوا إلى اليمن والمخلاف أوائل القرن العاشر الهجري.

التحصن بالقلعة فدخلها عليه القائد " سلمان " عنوة وقتله وأخرب القلعة ، ودمر قصور جازان وغيرها من المباني ، ونهبها وترك أهلها فقراء ^(١) . ويبدو أنه لم يلحق أذى كبيرا بالقلعة حيث أعيد ترميمها وبنائها مرة أخرى في عهد الأمير عامر بن يوسف العزيز ، ويظهر أنه قد اعتنى بإعادة بنائها عناية كبيرة وزاد من تحصينها وقوة بنائها . لأن مؤرخي المخلاف يذكرون أن البلاد قد استقرت وازدهر بها العمران ، وتنافس السكان في جازان وأبي عريش في العمارة حتى أصبح يُضرب بعصر الأمير عامر المثل في الميل إلى العمارة والتفنن فيها ^(٢) .

ج - خراب القلعة والسور عام (٩٣٤هـ / ١٥٢٧م) ثم إعادة إعمارها :

تعرض المخلاف السليماني في عهد الأمير عامر بن يوسف العزيز لحملتين شنهما عليه (قيس الحرامي) أمير حلي بن يعقوب في عامي (٩٤٠ ، ٩٤٢هـ / ١٥٣٣ ، ١٥٣٥م) لكنه باء في كليهما بهزيمة شنيعة على الرغم من المساعدات العسكرية التي قدمها له شريف مكة " (أبونمي بن بركات) ^(٣) . وما إن بلغت أصداء هذه الهزيمة مسامع الشريف " أبانمي " حتى أخذ يستعد لغزو المخلاف السليماني ، انتصاراً لحليفه أمير حلي ^(٤) . فاجتهد في جمع عساكر كثيرة من أهل ينبع والصفراوات والأودية ، والطائف ، وغيرهم حتى بلغ عدد خيلهم ما يقرب من (٧٠) فرساً كما بلغت عدد الرجالة ثلاثة آلاف ثم زاد عددهم لما بلغ حلي في طريقة إلى جازان فبلغ الخيالة قرابة (٦٠٠٠) من الرجالة ^(٥) . ولم يكتف بذلك بل أخرج حملة عن طريق البحر للغرض نفسه ^(٦) . وتكاد المصادر المكية والمحلية تجمع على أن سبب هذه الحملة إنما هي نصرته أمير حلي " قيس الحرامي " وغضباً للهزائم التي أنزلها به أمير جازان " عامر بن يوسف العزيز " ^(٧) . ويذهب النهروالي إلى أن " استطالة عامر على شرفاء مكة بلسانه وادعاء الافتخار بحسامه وسنانه وذكر ما لا يليق بشأنهم الشريف ، والسفه عليهم بكل كلام قبيح ووضع

(١) انظر ، العتيق اليماني (مخطوط) ورقة ٧١ ، و خلاصة السلاف ورقة ٤٠ .

(٢) العتيق اليماني ورقة ٧٢ ، و خلاصة السلاف ورقة ٤٢ .

(٣) الضمدي ، العتيق اليماني ، ورقة ٧٤ النمازي ، خلاصة السلاف ورقة ٤٧ . والعتيلي ، تاريخ المخلاف السليماني ، ج ١ ، ص ٢٧٦ . والكبسي ، اللطائف السنبة في أخبار الممالك اليمانية ، مخطوط صفحة ١٢٦ .

(٤) الكبسي ، المصدر السابق ، نفس الصفحة ، والضمدي ، الوافي بوفيات الأعيان ، ورقة ٧٥ .

(٥) جار الله بن العز بن فهد ، نيل المنى بذيل بلوغ القرى ، تحقيق : محمد بن الحبيب الهيلة ، مؤسسة الفرقان الإسلامي ، ط ١ (١٤٢٠هـ / ٢٠٠٠م) ج ٢ ، ص ٦٦٠ - ٦٦٢ .

(٦) المصدر نفسه ، ج ٢ ، ص ٦٧٢ .

(٧) انظر ، إضافة لما سبق من المصادر ، غاية المرام بأخبار سلطنة البلد الحرام ، للعز بن فهد ، تحقيق فهم شلتوت ، مركز البحث العلمي ، جامعة أم القرى بمكة (١٤٠٦هـ - ١٤٠٩هـ) ج ٢ ، ص ٦٦٧ وما بعدها .

سخيّف ، كان سبباً لخروج شريف مكة "أبي نمي" إلى جازان خاصة وأن هذه الأمور قد تكررت من الشريف "عامر" كما يقول النهروالي^(١). ولعل العلاقات الحسنة التي كانت بين الشريف "عامر" أمير جازان من جهة والعثمانيين، ووالي مصر من جهة أخرى^(٢). قد أخافت شريف مكة ، الأمر الذي ساهم مع الأسباب السابقة في أن يخرج أبونمي بهذه الأعداد الكبيرة والاستعدادات الضخمة براً وبحراً لغزو جازان ، وبطبيعة الحال لم تغب عنه حملة جده محمد بن بركات في غزوه للمخلاف عام (٨٨٢هـ / ١٤٧٧م) . فأراد لذلك كسر شوكة الأمير عامر صاحب جازان وإدخاله في طاعته^(٣). على أيه حال عقب وصول شريف مكة إلى وادي جازان دارت المراسلات مع صاحب جازان وحاول العلماء وأعيان الناس^(٤) التدخل بالصلح بين الشريفين فلم يرضخ الشريف "عامر" لمطالب شريف مكة "أبي نمي" ، فخرج إليه وحاصره في جازان واستمر الحصار أكثر من عشرين يوماً^(٥) ، استطاع خلالها أن يهدم أماكن من السور والدخول إلى داخل المدينة ، ومن ثم دارت رحى معركة عظيمة انتهت بهزيمة صاحباها الشريف "عامر" ومقتل أكثر من ثلاث مئة نفس من أهل جازان واستولى شريف مكة على "نخب وخيل وخرانة صاحب جازان" وكانت خيله أكثر من مئة فرس^(٦) ونهب كل ما وجده في جازان^(٧). وبعد هروب أمير جازان منها إلى حرص^(٧). منهزماً في ثلة من أصحابه ، استولى شريف مكة على جميع البلاد وقام بهدم القلعة الثريا^(٨) وسور المدينة وبالغ في ذلك فأخرب جميع بيوت جازان العليا^(٨). وكان لقوة بناء القلعة دور في أن يبقى مقيماً بأبي عريش أكثر من سنة لكي يستطيع جيشه هدم القلعة والسور^(٩). فهدمت إلى الأرض كما يقول النمازي^(١٠).

- (١) انظر ، البرق اليماني في الفتح العثماني ، دار اليمامة للبحث والنشر ، ط١ ، الرياض ، ١٣٨٧هـ. ص ٨٧ .
- (٢) العز بن النجم بن فهد ، غاية المرام ، ج٢ ، ص ٦٦٧ . توصلت العلاقة بين السلطان العثماني والأمير عامر إلى درجة أن السلطان العثماني كان يرسل له بخلعة مع واليه على مصر.
- (٣) النمازي ، خلاصة السلاف ، ورقة ٥٠ بترقيمي .
- (٤) ذكر النمازي في خلاصة السلاف ورقة ٥٢ أن من ضمن الوفد الذي أرسل إلى صاحب جازان بعض السادات من آل الحكمي.
- (٥) ذكر جبار الله ابن فهد أن الحصار ابتدأ يوم الثلاثاء (١٦ من شهر ذي الحجة واستمر إلى ٦ من محرم) ، (نيل المنى ، ج٢ ، ص ص ٦٩٠ - ٦٩١ .
- (٦) جبار الله بن فهد ، المصدر نفسه ، ج٢ ، ص ٦٦٧ .
- (٧) اختلف المؤرخون في تحديد جهة هربه فمنهم من ذكر أنه هرب إلى "الحقار" وقيل إلى "الحمرة" وقيل إلى الجبال . والثابت أنه رحل إلى حرص ومنها إلى زبيد ، وقد يكون مر على هذه الأماكن جميعها أثناء هربه .
- (٨) الضمدي ، الوالي في بوفيات الأعيان (العقيق اليماني) ورقة ٧٥ ، والنمازي ، خلاصة السلاف ، ورقة ٧٢ .
- (٩) جبار الله بن فهد ، نيل المنى ، ج٢ ، ص ٧٠٠ - ٧٢٥ ، وقد رزق أثناء مقامه بولد فسماه جازان على اسم المدينة.
- (١٠) خلاصة السلاف ، ورقة ٥٢ .

عقب ارتحال أبي نمي عن المخلاف ترك أحد أتباعه والياً عليه ، متخذاً من أبي عريش مقراً لحكمه^(١) . لكنه اضطر إلى مفارقتها عندما عاد الأمير " عامر بن يوسف العزيز " يصاحبه جيش من العساكر اليمينية أرسله الإمام يحيى شرف الدين إمام اليمن . وعندما رأى اليمينيون مدى الترحيب وحفاوة الاستقبال للأمير عامر من قبل سكان المخلاف قتلوه غيلة وهو نائم حسداً وغيظاً^(٢) . ولم تطل هيمنة إمام اليمن على جازان فقد استولى عليها العثمانيون بعد أن قضوا على الجراكسة في زبيد ، ومدوا سيطرتهم على أغلب بلاد المخلاف السليماني^(٣) . ويظهر أن الأتراك العثمانيين قد أعادوا بناء القلعة وترميم السور مع أن كشافهم الذين يتولون الإشراف على المخلاف كانوا يتخذون من أبي عريش مركزاً لهم إلا أن قلعة جازان التي أعادوا إعمارها كانت تستعمل كسجن تارة ، وكخط دفاع ، وموقع تحصن إذا ما اضطروا إلى استخدامها تارة أخرى . فأما استخدامها كسجن فيذكر الضمدي في كتابه أن كاشف المخلاف في سنة (٩٥١هـ / ١٥٤٤م) " حسن البهلوان " بلغ من جوره وظلمه في البلاد إلى الدرجة التي كان يروّع فيها سكان وادي جازان ويقبض على الكثير منهم ويحبسهم مكتفين ومقيدين في قلعة جازان ، وكان ذلك سبباً في خراب البلاد وتشتت العباد^(٤) . وكانت القلعة الحصن الحصين لوالي جازان وأبي عريش العثماني المسمى الأغا (الأحور) عندما حاصره الأمير عز الدين ابن إمام صنعاء شرف الدين يحيى ، ويبدو أن الأتراك عندما أعادوا بناء القلعة وترميم السور وثقوا البنيان لأن عز الدين بقي ما يقارب (٥٠) ليلة ضارباً الحصار على القلعة ، ولم يستطع دخولها على الأتراك ، فعاد إلى أبي عريش وأحرقها ، ثم انصرف عائداً إلى اليمن^(٥) . وقد وجد الأتراك عناءً كبيراً من جيش عز الدين بن الإمام شرف الدين حيث كانوا يصعدون على قبة قبر الشريف أحمد بن دريب بن خالد بن قطب الدين ، وعلى قبة جامع جازان ومنارته ويرمون الأتراك بالرصاص ، لذلك ما إن غادر عز الدين وجيشه منسحباً إلى اليمن حتى قام الأتراك بهدم الجامع^(٦) . ومنارته وقبة الضريح^(٧) . وجميع المباني الأخرى المحيطة

(١) السنجاري ، منائح الكرم ، تحقيق: ماجدة فيصل ، جامعة أم القرى مكة (١٤١٩هـ / ١٩٨٨م) ، ج٣ ، ص ٢٥٥ .

(٢) الضمدي ، العقيق اليماني ، ص ١٧٢ ، والنمازي ، خلاصة السلاف ، ورقة ٥٤ .

(٣) المصدران نفسهما ، انظر عيسى بن لطف الله ، روح الروح فيما حدث بعد المئة التاسعة من الفتن والفتوح ، تحقيق إبراهيم المقحفي ، مركز عبادي للدراسات والنشر ، ط١ . (١٤٢٤هـ / ٢٠٠٢م) ، ص ١١١ . النهروالي ، البرق العثماني . ص ٨٨ ، الكبسي ، اللطائف السنية (مخطوط) ورقة ١٢٨ ، ١٤٢ .

(٤) العقيق اليماني ، ورقة ١٨٢ ، وانظر النمازي ، خلاصة السلاف ، ورقة ١٨ .

(٥) العقيق اليماني ، ورقة ١٩٢ ، والعقيلي ، تاريخ المخلاف السليماني ، ج ١ ، ص ٣٠٠ .

(٦) قال في العقيق اليماني ، ورقة ١٩٤ ، وكان مسجداً عظيماً .

(٧) الضمدي ، الوالي بوفيات الأعيان ، نسخة جامع صنعاء ورقة ٨٢ .

بالقلعة^(١). وبقيت القلعة مكاناً منيعاً يتحصن بها الأتراك العثمانيون أمام ثورات أهالي المخلاف السليماني، فعندما نهض الأمير عبد الوهاب بن المهدي القطبي^(٢). على رأس جموع من سكان المخلاف السليماني لإخراج الأتراك من أبي عريش ومن المنطقة كلياً، والتحم بهم بمساعدة أشرف صبيبا الخواجيين وهزمهم، فتراجعوا أمامه وتحصنوا بقلعة جازان الأعلى (الثريا) واحتموا بها أمام غارات السكان، وقد حالت بحصانيتها بينهم والوقوع في قبضته ومن معه من أهالي المخلاف وبقي الأغا "فرحات" متحصناً ينتظر المدد من زبيد" وكان كلما واثته الفرصة خرج منها في غارات خاطفة على أبي عريش وعاد سريعاً للقلعة، ولأن الأمير عبد الوهاب القطبي ومن معه من أهالي المخلاف لم يستطيعوا الولوج على فرحات وعسكره في القلعة فقد تربص وأعد له الكمائن حتى تمكن من قتله في إحدى غاراته على أبي عريش^(٣). وعلى الرغم من أن مدينة "جازان العليا" فقدت منذ حملة أبي نمي عليها عام (١٥٣٦هـ / ١٥٣٦م) وما بعدها مكانتها كمدينة مشهورة وعاصمة للمخلاف واستحوذت "أبو عريش" على الاهتمام، إلا أن قلعة "الثريا" أبرز معالم جازان العليا لم تفقد أهميتها. وبقيت حصناً حصيناً يلوذ ويتمترس به كل من يحتاج إلى الحماية والتحصن، سواءً من أمراء المخلاف أو الطارئين عليه من الأقوام الأخرى لذلك نجد أن الأمير عيسى بن المهدي القطبي يبادر عام (٩٧٤هـ / ١٥٦٦م) إلى التحصن بها عندما بلغه خروج جيش الأتراك من اليمن بقيادة الأمير "حسين" ووصله إلى "أبي عريش"^(٤). ولما لم يكن بالقلعة من الطعام والأعلاف ما يعين على البقاء والتحصن بها^(٥). بادر أول ما علم بخروج الأتراك إلى "جازان العليا" إلى ملاقاتهم في منتصف الطريق بين أبي عريش وجازان، ودارت رحى المعركة وانتهت بهزيمته وتراجعهم إلى القلعة بعد أن أثخن الأتراك في جيشه.

وبقي يُغاديهم القتال ويرأوهم وكل ذلك لا يحقق انتصاراً، حتى هب الأتراك في جموعهم بعد أن استكملوا الاستعدادات لضرب الحصار على القلعة وقبل وصولهم

(١) العقيلي اليمني، ص ١٩٤.

(٢) كان حينها يسكن قرية "البداح" قرية بجهة الحرث، العقيلي، تاريخ المخلاف السليماني، ج ١، ص ٢٠٢، والمعجم الجغرافي لمقاطعة جازان، ص ٥٧.

(٣) العقيلي، المخلاف السليماني، ج ١، ص ٣٠٤.

(٤) العقيلي، المصدر نفسه، ج ١، ص ٢٧٣.

(٥) الضمدي، الوالي في بوفيات الأعيان ورقة ١٠٠، وقد علق على ذلك بأن القلعة لم يكن فيها "شحنة تعين على الحصار" وهذا يدل على أن القلعة كانت قبل ذلك مهملة.

إليها خرج إليهم الأمير عيسى القطبي^(١). ووقعت معركة شرسة قتل فيها العديد من فرسان الأمير عيسى فاضطر للتراجع إلى القلعة، لكنه عندما أحس بالنقص في العدة والعدد ورأى أن بقاءه بالقلعة - مع خلوها من العتاد والمؤن - لن يوفر له الحماية غادر القلعة منسحباً إلى الحقار، ومنها إلى المطهر بن شرف الدين إمام اليمن حينها فلم يجد عنده طائلاً فعاد إلى بلدته السلب^(٢). وبقي بها إلى وفاته^(٣).

د . حملة جيش المطهر بن شرف الدين وخراب القلعة عام (١٥٦٧هـ/١٥٦٧م)، ثم إعادة بنائها على يد الشريف أحمد بن غالب :

رتب الأتراك حامية في قلعة الثريا بقيت تتحصن بها من هجمات الأهالي المتوربين من الأتراك والرافضين لحكمهم ، في الوقت الذي كانت الحرب تدور في اليمن بين "المطهر بن شرف الدين" والأتراك في زبيد وغيرها من مدن اليمن^(٤). وقد تمكن المطهر من هزيمة الأتراك مستفيداً من الثورة العامة التي قامت ضدّهم في اليمن وتهامة والمخلاف السلیماني^(٥). فأخرج جيشاً كثير العدد والعدة ، عام (٩٧٥هـ/١٥٦٧م) ، بقيادة الشيخ "سراج بن عثمان" للاستيلاء على إقليم جازان وطرد الأتراك، فلم تستطع الحامية الخروج إليهم من القلعة ، وتراجع من كان في أبي عريش إلى القلعة فتحصنوا بها فضرب عليهم الشيخ "سراج" ومعه العديد من سكان جازان حصاراً شديداً وضيقوا الخناق على من بالقلعة . ولم تطل مقاومة الأتراك وقائدهم "الأغا سنان طمطاز" فأعلنوا تسليم القلعة وما فيه بشرط الحفاظ على أرواحهم وسلامتهم، فأجابهم إلى ذلك فغادروها عائدين إلى زبيد^(٦). وظفر الشيخ "سراج" وجيشه بما في القلعة وكان كما يقول الضمدي : "يجل عن الوصف من العدد والسلاح والبنادق والمدافع وخزائن وتحف وبرّ وجوخ ونحاس لا يحصر، وأمّوال، أرسلها كلها إلى المطهر"^(٧). ثم قاموا بإخراب القلعة وهدمها، كما أخرج الكثير من البيوت^(٨). ويذهب الضمدي إلى أن القلعة بقيت على خرابها إلى زمانه في القرن الحادي عشر الهجري

(١) المصدر نفسه ، نفس الورقة ، وانظر العتيق ، ورقة ٢٥١ ، ٢٥٢ .

(٢) قال العقبلي في المعجم الجغرافي ص ١٢٠ بأنها "مرج ومرعى بين العارضة والحرت".

(٣) العتيق اليماني ورقة ٢٥٢ ، والنمازي ، خلاصة السلاف ورقة ١٩ .

(٤) حسين عبد الله العمري ، تاريخ اليمن الحديث والمعاصر (١٢٣٦.٩٢٢هـ/١٥١٦.١٩١٨م) دار الفكر المعاصر ، بيروت ، ط ٢ ، (٢٠٠١م) ، ص ١٩ .

(٥) الضمدي ، العتيق اليماني ، ورقة ٢٥٢ ، والعمري ، تاريخ اليمن الحديث والمعاصر ، ص ٢٠ .

(٦) العتيق اليماني ، ورقة ٢٥٢ .

(٧) المصدر نفسه ، والوالب في بوفيات الأعيان ورقة ١٠٠ ، والنمازي ، خلاصة السلاف ورقة ٦٥ .

(٨) المصادر نفسها .

ويصف حالها في زمانه^(١). بما يدل على أن جازان - حيث توجد القلعة - قد فارقها أهلها وأصبحت خراباً مقفرة فيقول معلقاً: " وصارت من يومئذ خراباً لا أنيس بها قد نبتت فيها الأشجار، وتعطلت الديار، وانتشرت الأحجار تُصفر فيها اليوم إلى الوقت المعلوم^(٢). وبينما يذهب النمازي إلى أن القلعة بقيت على خرابها إلى أيام الشريف أحمد بن غالب الذي حكم المخلاف بين عام (١١٠١ - ١١٠٥ هـ / ١٦٨٩ - ١٦٩٣ م) " فكان أول من بناها بعد ذلك الخراب^(٣). نجد العقيلي يذكر أن الجنود الإمامية اليمانية حاصرت المدير التركي في قلعة جازان عام (١٠٣٦ هـ / ١٦٢٦ م) ، حتى استسلم بعد عشرة أيام^(٤). فإذا صح ما يقوله - حيث لم يذكر مصدره لهذه المعلومة - فذلك يعني أن القلعة قد أعيد ترميمها ربما من قبل الأتراك، لكن كلامه هذا لا ينبغي التسليم به خاصة إذا علمنا أن مصادره لا تكاد تعدو "العقيق اليماني" و "خلاصة السلاف" وربما غيرها. وقد مر معنا ما أكده الاثنان من أنها بقيت خراباً حتى بناها الشريف أحمد بن غالب، ويبدو أن العقيلي التقط ما ذكره المؤرخان وغيرهما في أحداث عام (١٠٣٦ هـ / ١٦٢٦ م) من أن جيش إمام اليمن محمد بن القاسم يساعده أشرف صبيا والمخلاف حاصروا الأغا "علي" الوالي التركي على إقليم جازان في القلعة نحو عشرة أيام^(٥). ولم يذكروا أنها قلعة جازان مما يدل على أن المقصود إنما هي قلعة أبي عريش التي عمرها الأتراك عام (٩٩١ هـ / ١٥٨٣ م)^(٦). يؤكد ما ذهبنا إليه أن المؤرخ اليماني الشريف في ذكره في حوادث (١٠٣٦ هـ / ١٦٢٦ م) ما نصه: " وصل كتاب مقادمة الإمام من أبي عريش يذكرون أنهم دخلوا مدينة أبي عريش يوم الأحد خامس عشر شهر ربيع الآخر من السنة المذكورة وتحير الأغا الذي من جهة الأتراك في جماعة قليلة من أصحاب في قلعة المدينة " إلى أن قال^(٧): " وفي يوم الإثنين ثاني وعشرين أو ثالث وعشرين من شهر ربيع الآخر من السنة المذكورة زحف جنود الحق وحملوا حتى لصقوا بداير القلعة وسلمهم الله - سبحانه - من البنادق .. إلى أن قال: " ثم احتالوا في نقب

(١) يفهم من كلامه في موضع آخر أنه كان حين تأليف كتابه في عام (١٠٤٢ هـ) انظر ص ٣١٠ من العقيق .

(٢) الضمدي ، المصدر نفسه ، ص ٢٥٢ .

(٣) خلاصة السلاف ورقة ٦٥ .

(٤) تاريخ المخلاف السليماني ، ج ١ ، ص ٣١٥ .

(٥) الضمدي ، العقيق ورقة ٣٦٩ ، والجرايف ، المتقطف من تاريخ اليمن ، منشورات العصر الحديث ، ط ٢ ، (١٤٠٧ هـ / ١٩٨٧ م) ، ص ٢١٦ ، والشريف ، اللأئى المضينة (مخطوط) ج ٣ ، ورقة ٤٨٢ .

(٦) الضمدي ، العقيق اليماني ، ورقة ٣١٣ .

(٧) وضع الشريف عنواناً جانبياً لفظه " فتح قلعة أبي عريش والاستيلاء على ما فيها " وكفى بهذا دليلاً على أن العقيلي - رحمه الله - أخطأ فيما ذهب إليه .

الداير ودخلت جنود الحق منه فلما أيقن الأتراك بالهلاك انحصروا واستسلموا إلخ^(١). لذلك فقد بقيت القلعة خراباً ومدينة جازان العليا أرضاً مقفرة حتى أوائل القرن الثاني عشر الهجري. ووصل الشريف أحمد بن غالب (١١٠١هـ/١٦٨٩م) إلى إقليم جازان بعد أن طرد من إمارة مكة نتيجة الخلاف الذي وقع بينه. عندما كان أميراً لمكة. وبين سعيد بن سعد ومن معه من أشراف مكة^(٢). واضطروا إلى الخروج منها إلى اليمن طلباً للمساعدة خاصة بعد أن صدرت أوامر السلطان العثماني بالموافقة على تعيين الشريف محسن بن الحسين بن زيد أميراً لمكة^(٣). ولما وصل إلى إمام الزيدية وقت ذاك الناصر لدين الله محمد طلب مساعدته فوعده خيراً وولاه مؤقتاً على المخلاف السليمانى حيث وصل إلى أبي عريش في صفر من العام (١١٠٢هـ/١٦٩٠م)^(٤). ومنذ وصوله بدأ في توسيع رقعة حكمه في المخلاف وشنّ عدة حروب أثارت السكان، وبقايا أمراء القطبيين وعلى رأسهم الأمير عز الدين القطبي الذي كان في المعتق^(٥). وأمراء صبيا الخواجين، كما أثار توسعه ومطامحه أمير صعدة "علي بن أحمد المتوكل" فشن عليه حروباً لم ينجح خلالها في القضاء عليه فتراجع إلى صعدة. وكان ذلك سبباً في أن يزداد الشريف أحمد بن غالب تجبراً وبيطشاً بمن ظن أنهم ضده من أهل أبي عريش وغيرهم^(٦). فازدادت العداوة والبغضاء له في قلوب الأهالي لذلك رأى أن يبحث عن مكان يوفر له الدفاع والحصانة إذا ما دهمته هجمات السكان وجيوش اليمن فكان أن اختار جازان العليا وقلعتها المشهورة المندثرة وعزم على إعادة إعمار القلعة فأعد العدة لإتمام هذا العمل الشاق في مدة وجيزة. ويصف لنا البهكلي اجتهاد الشريف أحمد في بناء القلعة وتوثيق هذا البنيان فيقول: "وفي غرة شعبان سنة (١١٠٤هـ/١٦٩٢م) ابتدأ في عمارة قلعة جازان وكانت الأشجار قد سترت أرضها فأمر بقطعها، وكان يغدو إليها ويروح إلى أبي عريش، ثم ضرب بها خيمة وأقام بغير سكن معه، وجد في ذلك واجتهد، وأقام وأقعد وأكثر من الصناعات والأجراء وامتلاً بهم ذلك الموضع بعد أن كان مقفراً" إلى أن قال: "ولم يزل مهتماً بأمرها وشأنها مشغولاً بالعناية في إحكامها، وتوثيق بنيانها، ولم يدع أمراً تدعو الحاجة إليه عند الحرب وشدة الحصار إلا أمر بفعله

(١) الشريفة اللآلئ المضيئة، ج٢، ص ٤٨٣-٤٨٤ بتريقي، وقد ذكر بالتفصيل مبلغ ما وقع في أيديهم من الأموال والذخائر والأسلحة.

(٢) السنجاري، منائح الكرم، ج٥، ص ٦١، ١٤٠، والعقبلي، تاريخ المخلاف السليمانى، ج١، ص ٣٧٢.

(٣) السنجاري، المصدر نفسه، ج٥، ص ١٠٨، ١٢٨.

(٤) العقيلي، المخلاف السليمانى، ج١، ص ٣٧٤.

(٥) من قرى بني الحرث (العقبلي) المعجم الجغرافي بمقاطعة جازان، منشورات دار اليمامة، الرياض، ١٣٨٩هـ، ص ٢١٢.

(٦) العقيلي، تاريخ المخلاف السليمانى، ج١، ص ٣٧٤، ٣٧٥.

فجاء أسلوبها غريباً.. الخ^(١). وكان يغضب على الصناع كلما لاحظ تأخراً في إنجازها وبخاصة بعد أن بدأت قبائل المخلاف تهاجمه فكان أن "حرض على الصناع في تجيز أبواب القلعة وانتهرهم على التراخي في ذلك"^(٢). ويظهر أن الصناع انتهوا من إنجاز القلعة، وسكنها الشريف أحمد ومن معه وبدأ يستقبل فيها زواره^(٣)، وقام باستصلاح الأراضي الزراعية الخصبة حول القلعة وأنفق لأجل ذلك أموالاً كثيرة، لكنه لم يتمتع بذلك حيث أخرج من المخلاف وطرد منه قهراً بعد أن اجتمعت قوى الأهالي بقيادة الأمير عز الدين القطبي، ومساعدة مؤثرة من إمام صنعاء الذي أُرِدَف ذلك بإرسال مندوب من قبله إلى الشريف يأمره بالارتحال والعودة إلى الحجاز فغادر في رجب من عام (١١٠٥هـ/ ١٦٩٣م)^(٤). ويعلق على ذلك البهكلي بقوله: "ومن غريب صنع هذه الدار ورجوعها على رونق إقبالها بالإدبار أن الشريف لما تكمل له إتمام الغرض من بناء القلعة حتى كشرت له عن أنياب أقل حرحرها"^(٥) القلعة والزعزعة وقد كان انفق أموالاً في تخريج أراض واسعة حولها يعدها للحراثة ما بين قطع الأشجار وإقامة الأعرام، وبذرها في سنة تخريجها ولم يأت عليها الحصاد حتى جاء ما ينغصه^(٦). وعقب خروجه عادت "جازان العليا" إلى إقفارها وخلوها من السكان بعد أن بدأت تعمر، كما خلت القلعة وأصبحت موحشة، ويكفي لوصف حالها قول البهكلي: "وخرج من كان بالقلعة مقيماً وخوت على عروشها بعد أن كانت تغص بالأمم، وتقصد لكل أمر شأنه يهتم"^(٧).

هـ - حالة القلعة بعد خروج الشريف أحمد بن غالب:

يختلف مؤرخو المخلاف في بيان ما آلت إليه القلعة بعد رحيل بانيتها الشريف أحمد بن غالب ونزوح الناس عنها وعن جازان فيذهب البهكلي إلى أن إمام صنعاء الهادي لدين الله^(٨). الذي ساعد على طرد الشريف أحمد بهدم القلعة فهدمها كما يقول البهكلي: "ومحاسنها فشوه منظرها البيض وعاد ربعها أسود بعد أن كان ذا بهجة أبيض"^(٩)

(١) العقد المفصل، (مخطوط) ورقة ٣٧.

(٢) العقد المفصل، (مخطوط) ورقة ٤٦.

(٣) العقد المفصل، (مخطوط) ورقة ٥٨، ٥٩ ويذكر أنه كان يسجن فيها من يقبض عليه من خصومه.

(٤) البهكلي، العقد المفصل، ط العقيلي، ص ٧٢، وتاريخ المخلاف ج ١، ص ٢٨٦.

(٥) كذا وردت اللفظة في المخطوط ورقة ٦٦ وفي ط العقيلي وضع مكانها نقاطاً وقال "جملة غير مفهومة" ص ٧٢.

(٦) العقد المفصل، ورقة ٦٦.

(٧) العقد المفصل ورقة ٦٥.

(٨) وهو لقب الإمام الناصر محمد بن أحمد بن القاسم المهدي إمام صنعاء الذي تولى الإمامه باليمن ما بين عامي ١٠٩٧هـ - ١١٢٧هـ. انظر: الجرافي، المقتطف من تاريخ اليمن، منشورات العصر الحديث، ط ٢٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م)، ص ٢٤٦-٢٢٩.

(٩) العقد المفصل، ص ٧٤، . طبعة العقيلي.

بينما يذهب النمازي في سياق حديثه عن الكوارث التي حلت بالقلعة وبناء الشريف أحمد بن غالب لها أنها " لا تزال بعد بنائها عارمة إلى حال هذا الزمان" (١). ويؤكد هذه المعلومة أن صاحب "نزهة الظريف في سيرة أولاد الشريف محمد بن أحمد" يذكر في سياق حوادث سنة (١٢٠٠هـ/١٧٨٥م) " أن الأمير يحيى بن أحمد توقف بقلعة جازان عندما نشب الصراع بينه وبين أخيه علي بن محمد ، وأنه اجتمع بكبار أهالي " أبي عريش " في مطرحه بالقلعة" (٢). وأيا كان الأمر فإن القلعة وبقية مباني جازان العليا طالتها يد الخراب والاضمحلال وأكمل الساكنون بها اليوم ما تبقى منها فنقلوا حجارتها واستخدموها ، وغيروا معالمها وبنوا على أنقاضها ، ولم يبق إلا بقايا من سورها الحجري الذي سعت وكالة الآثار إلى تسوير بعضه. ولا تزال الأيام تظهر من خلال عوامل التعرية الطبيعية على شواهد قبور في مقبرتها القديمة تدل على عراقة تاريخ هذه المدينة المندثرة .

ثالثاً : الخاتمة : نتائج وتوصيات :

١. يتضح مما تقدم أن مدينة جازان العليا كانت عاصمة المخلاف خلال أكثر من ثلاثة قرون وأنها أشهر مدن المخلاف السلیماني بعد اندثار مدينة عثر على ساحل البحر الأحمر التي كانت عاصمة المخلاف السلیماني حتى القرن السادس الهجري تقريباً.
٢. يتضح مدى الازدهار الذي تمتعت به المدينة خلال حكم الغوانم والقطبيين، ومن نتيجته تطور العمران وبخاصة العسكري منه الذي تمثل في بناء سور ضخم سميك حول جزء كبير من المدينة ، أو في بناء قلعتها المشهورة " الثريا" التي كانت من أشهر قلاع المخلاف السلیماني على الإطلاق إن لم يكن على مستوى الجزيرة العربية عامة .
٣. تتبع البحث الكوارث التي حلت بجازان العليا وقلعتها وسورها منذ حملة الشريف محمد بن بركات عام (٨٨٢هـ/١٤٧٧م) وحتى نهاية القرن العاشر الهجري وما بعده ، سواءً من أشرف مكة ، و الجراكسة والأتراك باليمن ، وغيرهم .
٤. ناقش البحث قضية مسمى درب جازان وتوصل إلى أن المقصود بهذه التسمية هو سور المدينة وليس المدينة نفسها .
٥. حاول البحث التوصل إلى رأي في توضيح تأسيس القلعة وسور المدينة ، والمقاربة

(١) خلاصة السلاف ، ورقة ١٠٥ بترقيمي ،، ويقصد منتصف القرن (١٢هـ/١٨م) .

(٢) انظر : عبد الرحمن البهكلي ، نزهة الظريف ، (مخطوط) ، ورقة ٤٠ بترقيمي .

ما أمكن في تحديد زمن تقريبي لذلك ، ولمن قام بتعمير القلعة بناءً على ما ورد في بعض المخطوطات والمصادر.

٦. أراد الباحث من هذا البحث توثيق تاريخ قلعة الثريا المشهورة ، وسور المدينة في ضوء الروايات التاريخية، بعد أن دثرت مدينة جازان وقلعتها ، واختفت معالمها وأطلالها وطواها النسيان .

٧. إن منطقة جازان ثرية بتاريخها وموروثها الحضاري ، وهي تستحق من جامعة جازان ومن جميع المؤرخين والباحثين الجادين أن يتولوا هذه البلاد بالدراسة والتنقيب عن أثارها ونقوشها ورسوماتها الصخرية. كما نأمل أن نرى من بناتنا وأبنائنا الدارسين في برامج الدراسات العليا في أقسام الآثار والتاريخ في المملكة العربية السعودية أن يبذلوا قصارى جهودهم في دراسة هذه الأوطان التهامية وغيرها من بلاد تهامة الغنية بموروثها الحضاري.